مجلة المجمع العلمي

محددات الدلالة اللغوية والمفاهيمية
لمفردتي الثقافة والحضارة

وليد خالد أحمد

الملخص :

يحدد البحث معاني ودلالة مفردتي الثقافة والحضارة وفك الألتباس القائم بينهما ولاسيما في استخدامها الفكري وما يتصل بهما من العلم والمدنية .

المقدمة :

في كل مرحلة من مراحل تداول الأفكار ، تشيع مفاهيم ويكثر استخدامها في أوساط المفكرين كمفاتيح أفكار أو مداخل لمناهج أو سياسات اجتماعية واقتصادية وثقافية . فلا يكاد يمر يوم من حياتنا من دون أن نصادف مفهوما أو عدة مفاهيم أو نتعثر بأحد مشتقاتها . فقط ، نتصفح أية جريدة أو مجلة أو نحاول رصد عدد المرات التي تتردد فيها بعض المفاهيم تحديدا لنرى بأي قدر مرعب نستهلك هذه المفاهيم .

القضية كلها تعتبر جزءً من مشكلة لدينا نحن العرب ، مختصرها أننا نعاني من خلط في المفاهيم وأنواعها ولانتوخى الدقة على الإطلاق عند استخدامها ، وهو عيب لم نحاول إصلاحه حتى أصبحنا نتعامل معه على أنه أمر واقع ، حتى وصل الأمر بالكثيرين الى ذكر مفاهيم لها أكثر من معنى واستخدامها ، ولم يعمدوا إلى تعريفها بل إن بعضها أخطأ في استعمالها ولم يتقيد بمدلولاتها مما أدى بكل أسف إلى عدم التمييز بين معانيها وغاياتها والأهداف التي خلقت من أجلها .

إن مشكلة التعريف بالمفاهيم وتحديدها تعد من المشكلات الأساسية في التحليل الفكري والتحليل السياسي والاجتماعي بصفة عامة . إذ تتعدد وتتداخل التعريفات للمفهوم الواحد ، الأمر الذي يخلق قدرا من الأضطراب واللبس عند استعمال مثل هذه المفاهيم .

ويرجع عدم الاتفاق حول تعريف المفاهيم في العلوم الاجتماعية وتحديدها إلى عدة اعتبارات منها:- إن الظواهر الفكرية والسياسية والاجتماعية – بصفة عامة – ظواهر مركبة متعددة المتغيرات . ومن ثم المفاهيم الدالة عليها تتسم بالعمومية والتعقيد وتعدد الأبعاد ، كما إن المفاهيم تعتبر نتاجا لخبرة اجتماعية مشتركة ، ولما كانت خبرات الأفراد والجماعات تختلف من حيث الزمان والمكان ، فإن ذلك ينعكس على معاني المفاهيم واستخدامها . لذلك فإن استخدام مفاهيم معينة أو فهمها بدلالات ومعانٍ محددة إنما يعكس في حد ذاته تفصيلات وانحيازات وثيقة الصلة بخبرة الجماعة .

إن مما يثير مخاوفنا نحن العرب على مستقبلنا هو غموض المفاهيم التي يعتمدها الفكر العربي في أهم الموضوعات وأخطرها ارتباطا بالحياة العربية . فقد صرفتنا محاولات بعض مفكرينا تسييس اللغة العربية عن الكشف في قوانين التفاعل الداخلي للقوى المحركة الفاعلة في هذه اللغة الحية ورصد تداعياتها في التحولات الاجتماعية والفكرية والسياسية . صرفتنا إلى الإشكاليات التي خلقتها الرموز اللغوية غامضة المفاهيم التي تحولت إلى مشكلة يتعاظم خطرها على أية محاولة فكرية لتعميق التواصل بيننا نحن العرب وبين قواه السياسية والاجتماعية المختلفة .

وحول أهمية إزالة غموض المفاهيم وإزالة الاختلافات في معاني الألفاظ ومشكلات انعدام التواصل التي يخلقها الغموض ، سعينا في دراستنا هذه إلى تناول مفاهيم الحضارة والثقافة نموذجا لتقاطعات دلالات المفاهيم ومحدداتها والتباساتها فأنني سأتناول هنا معنى الحضارة ومعنى الثقافة وما يتصل بهما من العلم والمدنية وان أفرق بينهما وبين ما يجب علينا توضيحه والتمسك به ، والتمييز بين الحضارة والثقافة وبين العلم والمدنية . تفريقا يحدد المعالم ويزيل اللبس بينهما مما يعيننا على تلمس طريقنا اليوم ويحدد لنا معالم مستقبلنا في خضم الصراع المفاهيمي الحضاري العالمي .

تاريخية مفردة الثقافة ودلالتها في اللغة والاصطلاح :

لم تشهد كلمة ازدهارا وانتشارا ككلمة الثقافة ، وليس هناك مفهوم أكثر تداولا وأستخداما كمفهوم الثقافة ، ومع ذلك يبقى الغموض والألتباس متلازمين لها ، كلما طرح موضوعها للنقاش والبحث . وهناك بحوث تخصصت في رصد نشأة المفهوم وتطوره من الناحية التاريخية ، وأخرى ركزت على الجانب المعرفي . وقد احصى عالما الانثروبولوجيا الأمريكيين كروبير Kroeber وكلوكهون Kluckhohn ما لا يقل عن (١٦٠) تعريفا للثقافة قاما بفرزها على سبعة اصناف :- وصفية وتاريخية وتقييمية وسيكولوجية وبنيوية وتكوينية وجزئية غير كاملة[١] .

---

[١] عبد الغني عماد – سوسيولوجيا الثقافة ، المفاهيم والاشكالات ، من الحداثة الى العولمة ، ط ١ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص ٢٨.

وقد اكتسبت كلمة ثقافة Culture معناها الفكري في اوروبا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فالكلمة الفرنسية كانت تعني في القرون الوسطى الطقوس الدينية Cultes لكنها في القرن السابع عشر كانت تعبر عن (فلاحة الأرض)[٢] . ومع القرن الثامن عشر اتخذت منحى يعبر عن التكوين الفكري عامة ، وعن التقدم الفكري للشخص خاصة ، وعما يتطلبه ذلك من عمل ، وما ينتج عنه من تطبيقات .

هذا هو المعنى الموجود في المعاجم الكلاسيكية ، ولكن انتقال الكلمة الى الالمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أكسبها لأول مرة وقبل رجوعها الى فرنسا مضمونا جماعيا ، فقد اصبحت تدل خاصة على التقدم الفكري الذي يتحصل عليه الشخص أو المجموعات الانسانية عامة[٣] . أما الجانب المادي في حياة الأشخاص والمجتمعات فقد افرزت له الالمانية كلمة حضارة .

ومع ذلك فان مفهوم الثقافة سوف يمر بتحول آخر عند انتقاله من اللغة الالمانية الى اللغة الانكليزية ، وقد قامت بهذه الاستعارة الانثروبولوجيا الانكليزية وتحديدا مع تيلور صاحب اشهر تعريف للثقافة والذي اخذه اوائل علماء الانثروبولوجيا الأنكليز والأمريكان[٤] .

---

[٢] الطاهر لبيب – سوسيولوجيا الثقافة ، ط ٥ ، دار محمد علي الحامي للنشر ، صفاقس (تونس) ، ١٩٨٨ ، ص٦.

[٣] غي روشيه – مقدمة الى علم الاجتماع العام ، ترجمة – مصطفى دندشلي ، ط١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١٣٠.

[٤] عبد الغني عماد – مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩.

وصلت الانثروبولوجيا في الولايات المتحدة الى الحد الذي عرفت فيه نفسها كعلم للثقافة . وفي الوقت الذي كان يتم فيه التمييز في بريطانيا بين الانثروبولوجيا الطبيعية – دراسة تطور ونمو جسم الانسان – وبين الانثروبولوجيا الاجتماعية ، كان الامريكيون يقابلون بين الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيات الطبيعية[٥] .

وحيث ان رواد علم الاجتماع الكبار أمثال كونت cont وماركس marx وفيبر weber ودوركهايم Durkheim ، لم يستخدموا مصطلح الثقافة مفهوما بشكل واسع ، مما ادى هذا الى انتشاره البطئ ، وفي اللغة الفرنسية كان استخدامه أكثر بطئا ، ففي الوقت الذي تشمل فيه معاجم اللغة الانكليزية جميعها على تعريف سوسيولوجي أو انثروبولوجي للثقافة غالبا ما يكون شديد الوضوح ، فان نظير ذلك كان غير متوافر حتى في طبعات المعاجم الفرنسية الأكثر حداثة . ولا شك في ان ذلك يعود نوعا ما الى ان علم الاجتماع الفرنسي كان لفترة طويلة لا يزال مصبوغا بصبغة مصطلحات دوركهايم الخاصة[٦] . ولم يصبح اصطلاح الثقافة شعبيا في فرنسا بتأثير من علم الاجتماع الامريكي الا بفضل الجيل الجديد من علماء الاجتماع الفرنسيين ، هذا الجيل الذي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية[٧] .

لعل هذه اللمحة التاريخية عن تطور استخدام مصطلح الثقافة تساعد في تحديد المفهوم الذي اخذ من اللغة الفرنسية ثم أعيدت ترجمته من

---

[٥] المصدر نفسه ، ص ٢٩.

[٦] غي روشيه – مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٢.

[٧] عبد الغني عماد – مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠.

اللغة الالمانية الى اللغة الانكليزية ، وكان يضاف في كل مرة مضمون جديد سواء بطريق التعميم أو بطريق القياس من دون أن يفقد معناه الأصلي ، وأنما يكتسب معاني جديدة تكون دائما أكثر بعدا عن المعنى الأول . فمن (فلاحة الأرض) كما كان يعني في اللغة الفرنسية القديمة الى المعنى السوسيولوجي في اللغة الفرنسية الحديثة ، هناك من غير شك فرق شاسع كان ثمرة تطور شق طريقه بصورة يمكن ان نسميها متكاملة وبدون انقطاع[٨] .

أما الكلمة في اللغة العربية نكاد لا نعثر لها على أثر في الخطاب العربي القديم ، فقد جاءت في أغلب المعاجم العربية بالشكل الآتي :

استعملت مادة ثَقِفَ في الحسيات ، يقال :- تثقيف الرماح ، أي تسويتها . ويقال:- ثَقف تثقيفا ، أي سواه[٩] .

وتستعمل في المعنويات :- قال ابن دريد - ثَقِفتُ الشيء ، حذقته ، وثَقِفتُه - إذا ظفرت به . قال الله تعالى :- "فإما تَثْقَفَنَّهُم في الحرب"

وثَقُفَ الرجل - بضم القاف - ثقافة : أي صار حاذقا خفيفا ، وثَقِف - بكسر القاف - ثَقَفا : أي صار حاذقا فطنا . . وفي حديث الهجرة : وهو غلام لَقِنٌ ثَقِفٌ : أي ذو فطنة وذكاء ، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه[١٠] .

---

[٨] غي روشيه - مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٣.

[٩] ابن منظور - لسان العرب ، مادة ثقف .

[١٠] المصدر نفسه.

وقال الزمخشري : وثَقِفتُ العلم أو الصناعة في أوهى مدة ، إذا أسرعت أخذه . ومن المجاز: أدّبه وثقّفه ، ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئا . وهل تهذبتُ وتثقفتُ إلاّ على يدك .

وعلى هذا ، فالثقافة هي : التسوية والتهذيب والتقويم ، والحذق والظفر والفطنة ، وسرعة أخذ العلم وفهمه ، وثبات المعرفة بما يحتاج إليه[11] .

إذَنْ فالثقافة في خطابنا المعاصر ليست هي كما تفهم في الخطاب العربي القديم ، وليست هي بمعناها في اللغات الاوروبية القديمة . لقد تطور استخدام الكلمة الى ان اصبحت مفهوما له دلالات معرفية خاصة وأبعادا سوسيولوجية متعددة .

ليس هناك تعريف جامع مانع وهو ما يعبر عنه بالحد لكلمة ثقافة . لأنها ذات أبعاد كبرى ودلالات كثيرة وإيحاءات شتى ، وتعني في إطارها العام آفاقا جمة ومستويات عدة . . .

وليس هذا خاصا بالثقافة وحدها ، فهناك ما يعترض الدارسين من صعوبة التعريف الجامع المانع لكثير من المصطلحات التي أصبحت شائعة ذائعة في هذا العصر بدلالات جديدة ، وإيحاءات لم تكن معروفة لهذه المصطلحات من حيث الأصل والاستعمال من قبل ، مثل: الفن والحضارة والمدنية . . . ومن هنا اختلفت العبارات لاختلاف الاعتبارات . . .

---

[11] سعد محمد الشيخ المرصفي – الثقافة والشريعة الاسلامية ، ضمن بحوث مذكرات في الثقافة الاسلامية ، ط ؟ ، جامعة الكويت ، ١٩٨١.

قال محمد بن سلام الجمحي :- وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفهُ العين ، ومنها ما تثقفهُ الأذن ، ومنها ما تثقفهُ اليد ، ومنها ما يثقفهُ اللسان .

وقد فهم بعض الباحثين في النقد الأدبي أن لفظة صناعة تعني لدى ابن سلام ميزان نقد الشعر فقال: كان ابن سلام أول من نص على استقلال النقد الأدبي ، فأفرد الناقد بدور خاص ، حين جعل للشعر – أي لنقده والحكم عليه – صناعة يتقنها أهل العلم بها ، مثلما أن ناقد الدرهم والدينار يعرف صحيحهما من زائفهما بالمعاينة والنظر ، ولعله كان يرد على من يتطاولون إلى الحديث في نقد الشعر من معاصريه وهم لايملكون ما يسعفهم من ذلك .

وهنا يبقى السؤال قائما حول ما يعنيه ابن سلام من كلمة ثقافة التي عطفها على لفظة صناعة . فإذا كان ينفي الترادف فإن مدلول لفظة ثقافة – كما يفهم من كلامه – يعني الحذق والفهم والقدرة ، أو ما يمكن أن نعبر عنه بما يسمى الملَكة . فإذا أضيفت الكلمة إلى الشعر كانت ملَكة الشعر ، أي القدرة على فهمه وحذقه ونقده ، وإذا أُطلقت من دون أن تضاف إلى علم أو فن فليس ثمة ما يمنع أن تدل على ما نطلق عليه اليوم الثقافة العامة . فإذا جعل ابن سلام للشعر ثقافة فإن معنى ذلك أن للنثر ثقافة أيضا ، وهي الثقافة الأدبية ، وتتسع الدائرة ويتنوع المدلول كلما أضيفت الثقافة إلى علم أو فن خاص ؛ كأن نقول : الثقافة الشرعية ، والثقافة التاريخية والثقافة الفلسفية والثقافة الطبية ، ونحو ذلك . . . فإذا ذكرت اللفظة من دون إضافتها إلى شيء فليس لها على هذا التفسير إلاّ التنوع

والعموم ، وإذا اتصف بها إنسان كانت ملكته في فهم ضروب العلوم والفنون والمعارف ملَكَة جيدة بوجه عام ، وهذا يدل عليه لفظ المثقف في الاصطلاح الشائع في هذا العصر [١٢] .

وحاول بعض التربويين أن يضعوا تعريفا لها فقالوا إنها :- مجموعة الأفكار والمثل والمعتقدات والتقاليد والعادات والمهارات وطرق التفكير وأسلوب الحياة والنظام الأسري ، وتراث الماضي بقصصه ورواياته وأساطيره وأبطاله ووسائل الانتقال والاتصال وطبيعة المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الواحد .

وهذا يتفق مع المفهوم الذي تدل عليه كلمة Culture في الاصطلاح الإنكليزي الحديث منذ أيام الأنثروبولوجي الإنكليزي تيلور Tylor . B . E ، (١٨٣٢-١٩١٧) الذي يعتبر تعريفه اقدم التعريفات والذي قدمه في كتابه (الثقافة البدائية / ١٨٧١م) والذي يذهب فيه الى التعريف الآتي :- الثقافة أو الحضارة بالمعنى الاثنوغرافي الواسع :- هي كل مركب يشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والقانون والاخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الانسان كعضو في مجتمع . . . بمعنى جملة ما تحصل في جماعة ما من تراث المعرفة النظرية والعملية ، ومن التراث الاعتقادي والحضاري العلمي والفلسفي والفني ، بالمعنى الواسع . فالثقافة حسب هذا التعريف تشمل العناصر المادية وغير المادية[١٣] .

---

[١٢] المصدر نفسه.

[١٣] عبد الغني عماد – مصدر سبق ذكره ، ص ٣١.

إن هذا التعريف الذي هو أقرب الى الوصف ، نقل الثقافة الى مستوى الوقائع الاجتماعية التي يمكن ملاحظتها مباشرة في فترة زمنية محددة ، كما يمكننا تتبع تطورها وهذا ما فعله تيلور نفسه .

ومنذ ذلك الحين طرحت العشرات من التعريفات بحيث أصبحت القائمة طويلة جدا ، وقد جمع هذه التعريفات وصنفها وانتقدها كروبير وكلوكهون . والجدير بالذكر ان عددا كبيرا من هذه التعريفات لم يكن موفقا أو محظوظا . ويمكن القول ان هذا التعدد والتنوع في تعريف الثقافة انما يعكس في حقيقته تعدد الخلفيات والأطر الاجتماعية والمعرفية التي ينطلق منها هؤلاء الباحثون في تحديدهم وتعريفهم الثقافة . وبالتالي فان أغلب هذه التعريفات بقيت اسيرة المنظومة الفكرية للباحث وعكست طبيعة انتماءاته وأهتماماته[١٤] .

ويمكننا ان نؤكد من دون مبالغة ان هناك أكثر من مائة وستين تعريفا للثقافة لعلماء ينتمون الى تخصصات مختلفة منها الانثروبولوجيا والاثنولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والطب العقلي والاقتصاد والسياسة والجغرافية . من الطبيعي ان يركز كل عالم يمثل تخصصا معينا على محددات معينة ، وان يعطي ثقلا لظواهر من الثقافة دون أخرى ، بحسب ما ينصرف اليه أهتمامه النابع من تخصصه[١٥] .

---

[١٤] المصدر نفسه ، ص ٣١.

[١٥] سامية حسن الساعاتي – الثقافة والشخصية ، بحث في علم الاجتماع الثقافي ، ط ٢ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣٤.

ولعل أبسط التعريفات وأحدثها ما جاء به روبرت بيرستد الذي ظهر في أوائل الستينيات والذي يعتبر :- الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في مجتمع . الا ان تعريف غي روشيه أكثر شمولا وعمقا ، وهو استفاد قبل وضعه من كل التعاريف الأخرى ويقدمه على الشكل الآتي :- الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل ، وهي طرق صيغت تقريبا في قواعد واضحة والتي اكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن معا من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة[١٦] .

ومن الواضح ان هذا التعريف استعان بصيغة دوركهايم الموفقة جدا ، طرق التفكير والشعور والعمل ، وهي صيغة أكثر شمولا وتركيبا من تعداد تيلور . ومن جهة أخرى فأنها أكثر وضوحا من صيغة طريقة في الحياة ، والشائعة في كثير من التعريفات ، والأهم من ذلك ان هذا التعريف سيتيح لنا ان نلقي الأضواء على الخصائص الأساسية التي يتفق علماء الانثروبولوجي والاجتماع على الاعتراف بها للثقافة .

ولا بد من الأشارة الى بعض التعريفات ذات الطابع الشمولي التي لا ترتكز على جانب واحد فقط من جوانب الثقافة . فالتعريف الماركسي للثقافة من هذا النوع يعتبرها شاملة :- كل القيم المادية والروحية ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ . ويمتاز هذا التعريف بأنه يحدد بوضوح اهم مكونات الثقافة ، فهو يرى أن

---

[١٦] عبد الغني عماد - مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠ و ٣١.

الثقافة ظاهرة تاريخية ، كما انه يربط بين الثقافة والمجتمع الذي تنشأ فيه ، ويعطي تفسيرا لنشأة الثقافة وتغيرها على الرغم من أنه يغلب التفسير المادي والبعد الطبقي للثقافة .

ويتميز تعريف كروبير وكلوكهون الشمولي بأبعاد جديدة ، فهو يعتبر ان الثقافة تتكون من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمنتقل بواسطة الرموز ، التي تكون الانجاز المميز للجماعات الانسانية والذي يظهر في شكل مصنوعات ومنتجات . أما قلب الثقافة فيتكون من الأفكار التقليدية المتكونة والمنتقاة تاريخيا وبخاصة ما كان متصلا منها بالقيم ، ويمكن ان نعد الانساق الثقافية نتاجا للفعل من ناحية كما يمكن النظر بوصفها عوامل شرطية محددة لفعل مقبل[١٧] .

ومن الواضح ان هذا التعريف يمتاز بأنه اكثر شمولا من التعريف الماركسي ، اذ يضم أيضا النظرة السيكولوجية للثقافة ، والنظرة البنيوية لها ، وتظهر الأولى في قولهما بأن الثقافة مكتسبة ، أما الثانية فتبرز من خلال نظرتهما للثقافة كنماذج من السلوك .

كذلك يمتاز هذا التعريف بأنه يهتم بدينامية الثقافة وكيفية انتقالهما ، ويفسر نشأتها ، ولا يهمل ان الثقافة اذا ما اختزلناها لوجدنا انها نتاج رموز وأفكار ، وهذا عدا عن ابرازه للصلة بين الثقافة والشخصية . وهذا يعني ان الثقافة من خلق الانسان من ناحية ، كما انها تحدد سلوكه وافعاله من ناحية أخرى ، ولا يهمل هذا التعريف الجانب التاريخي وأهمية القيم بصفة خاصة .

---

[١٧] المصدر نفسه ، ص ٣١ و ٣٢.

يتضح مما تقدم . . ان كلمة ثقافة أستعملت للدلالة على العناية بالأدب وبالشؤون الإنسانية . والتبحر في الفنون والآداب . وحب الإنسانية بوصفه عنصرا أساسيا في تكوين رجل الفكر و السياسة ، يتم له عن طريق دراسة الآداب والعلوم الاجتماعية . وفي عصر النهضة طبقت كلمة ثقافة على دراسة الفنون والآداب والتربية . وحاول فلاسفة القرن السابع عشر الميلادي أن يطبقوا مناهج العلم في دراسة الإنسان فتكلموا عن تثقيف الفكر أو تثقيف الإنسان . وتثقيف الإنسان عن طريق معرفة طبيعته اتخذ شكلين في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين . فقد درس الفلاسفة الألمان طبيعة الثقافة وطبيعة الحياة الروحية وعلاقة العلوم الثقافية بعلوم الطبيعة .

اذن ، الثقافة هي الحصيلة الفكرية من أدب وعلم وفن وفلسفة وغير ذلك ، تعبر عن إنجاز الإنسان في مراحل تطورية يتداولها أو يتعلمها الأفراد بشتى الوسائل المختلفة للاتصال فتزداد بالتجارب الجديدة وتنحسر في فترات التدهور والانحطاط ، تؤثر في سلوك الأفراد وفي مواقفهم من الحياة والكون ، تتفاعل مع الإنجازات الفكرية لأمم أخرى فتنفتح على تجارب الآخرين وخبراتهم فتأخذ القليل أو الكثير أو تنغلق على نفسها في فترات معينة من التاريخ ولأسباب مختلفة ، مهمة في تشكيل السلوك وعقلية الأفراد في المجتمع ، تمثل الجزء الموروث للشعب من تجارب الأسلاف وخبراتهم .

الثقافة في الإطار الأنثروبولوجي

الأنثروبولوجيا ، علم مختص بدراسة الإنسان عبر تطوره البايولوجي والسوسيولوجي ودراسة الثقافة ضمن هذا الإطار تشكل جزء من طبيعة الإنسان والمجتمع ، ذلك لأنها ضرورة ملازمة للوجود الاجتماعي للإنسان .

يعد الأنثروبولوجي البريطاني تيلور كما مر بنا ، أول من حاول تعريف الثقافة عام ١٨٧١ . ونظرا لكون تعريفه شاملا ويعد أول تعريف في الأنثروبولوجيا الثقافية ، لذلك نلاحظ أنه ساد في كثير من المؤلفات . فالعلاّمة الأمريكي لوي Lawie ، الذي يُعد مؤسس الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا ، قد بدأ كتابه الشهير – المجتمع البدائي ١٩٢٠ – بنقل تعريف تيلور ووصفه بالتعريف الشهير[١٨] .

وعلى هذا الأساس أصبح تعريف تيلور أكثر وقعا في المفاهيم المعطاة للثقافة . فـ آنا كوريني براون ترى في الثقافة بأنها تشمل كل الطرق للسلوك المقبولة والمصاغة من قبل شعب فعال ، وهي قوام للتفاهم المشترك وخلاصة عامة وتنظيم لكل طرق التفكير والشعور ونشاطات الجماعات . كما تتضمن كيفية صنع أدوات أنتاج الحاجات الضرورية للحياة ، وبهذا المفهوم الثقافة فإن كل أمة مهما كانت بدائية لها ثقافة معينة ولايمكن للفرد أن يعيش اجتماعيا من دون ثقافة[١٩] .

---

[١٨] افرام داوود شبيرا – دور المثقفين في التحولات الاجتماعية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية القانون والسياسة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ / ص ٢٦.

[١٩] المصدر السابق ، ص ٢٧.

أما بيرنارد فهو لم يشذ عن القاعدة الأساسية التي وضعها تيلور لمفهوم الثقافة ، فالثقافة عنده شيء أكثر من واسع وشامل ، فهي تشمل وبصورة مبسطة ، كل الابتكارات والتقاليد والأعراف التي صُنعت من قبل البشرية والتي تجعل الإنسان إنسانا ، فبدونها يكون الإنسان نوع آخر من الحيوان يعيش في جماعات صغيرة ومحدودة ، ولكن من دون ثقافة ، بالإضافة إلى ذلك ، فالثقافة تتضمن كل الأشياء المقبولة والمقررة ، مثل أساليب العمل والتفكير والمعرفة ونماذج للسلوك المتوارثة من جيل إلى آخر عن طريق التعليم والتدريس وليس عن طريق الولادة [٢٠] .

وبخصوص ذلك يؤكد جون فون هرور من ان :- ثقافة الشعب هي دم كيانه . وبعده قام هيجل فقال : إن الكائن والفكر شيء واحد . وقال الفلاسفة الرومانطيق من مدرسة نيتشه بالتطور وإرادة القوة وتنازع البقاء . وقاموا بوضع الخطوط الكبرى للتأمل الفلسفي والسوسيولوجي حول القيم المتجسدة في الحاجات الثقافية ، وحول بنية وطبيعة القيم الثقافية والأثر المتبادل بين الذاتي والموضوعي في تحول الثقافات وتغيرها .

وعرف ماتو آرنولد الثقافة بأنها :- السعي إلى الكمال الشامل عن طريق معرفة أفضل الأفكار والأقوال في العالم ، ثم تطوير كل مظاهر إنسانيتنا والدين هو إحدى القوى التي بها يمكن للإنسان أن يكتمل . وبفعل الهلنستية وهي العمل على رؤية الأشياء كما هي ، والعبرية التي هي طاعة وقوة ، سعى الإنسان إلى كماله .

---

[٢٠] المصدر نفسه ، ص ٢٧.

ويعرف جون ديوي الثقافة بأنها نتيجة تفاعل الإنسان مع بيئتـــه ، ولكن الفلاسفة الوجوديين يركزون على مظاهر الإبداع في الثقافة . وقـــد كُتب الكثير عن علاقة الثقافة بالدين ، فجعلها البعض أشمل من الـــدين ، في حين قال البعض بأن الثقافة هي تجسيد لدين أي شعب من الشـــعوب . أما أتباع الحركة الإنسانية فيرون أن قصْر الثقافة علـــى الآداب والفنـــون لايساعد الإنسان على تحقيق ذاته ولا على التفاهم بين الشعوب[٢١] .

أما بالنسبة لبعضهم من الأنثروبولوجيين فإن الثقافة عندهم نظـــام متكامل لأشكال السلوك المكتسب ، وهي صفة مميزة لأعضـــاء المجتمـــع الواحد التي لايمكن أن تتوارث بايولوجيا ، ذلك لأن الثقافـــة لايمكـــن أن تفرض وراثيا ، فهي نتيجة للابتكارات والتحول والصـــيانة الاجتماعيـــة وحدها من خلال الاتصال والتعلم ، وعلى هذا الأساس فإن لكـــل مجتمـــع متميز ثقافته الخاصة ، وهذا ما يجعله متميزا في تصرفاته وسلوكه عـــن بقية المجتمعات[٢٢] .

أما بالنسبة للأنثروبولوجيين العرب فقد ذهبوا في تعريفهم الثقافـــة وتحديدها إلى منحى الكتاب الغربيين الذين سبقوهم فيه ، متأثرين بصورة أو أخرى ، بتعريف تيلور . فالدكتور أحمد الخشاب يرى في الثقافة بأنهـــا تشمل جميع الصفات المكتسبة في المجتمع كالحقائق والفنون وأنواع التقدم الفكري والعلمي والبناء القيمي ، وجميع اللوازم المادية للإنسان ، فنونـــه وآلاته وأدواته وأسلحته ، وجميع ما يستخدمه الإنسان فـــي أعمالـــه ومـــا

---

[٢١] المصدر نفسه ، ص ٢٨.

[٢٢] المصدر نفسه ، ص ٢٨.

يختص بطقوسه السحرية والدينية . كل هذا يمثل المظاهر المحسوسة الملحوظة في الثقافة . كما ويؤكد الخشاب الجانب التنظيمي التكاملي للثقافة كوسيلة لفهم واستيعاب النسق الثقافي[٢٣] .

أما الدكتور عاطف وصفي فيرى ان المعنى المبسط للثقافة يتجلى في طريقة معيشة مجتمع ما ، سواء أكان ذلك المجتمع بدائيا أو متخلفا أو ناميا أو متقدما . والثقافة من صنع الإنسان ، وتخضع لقوانين التطور[٢٤] .

وهناك العديد من التعريفات المعطاة للثقافة ، فبعضهم يذهب إلى اعتبارها مجرد سلوك مكتسب ونمط للحياة المادية وغير المادية ، والبعض الآخر يؤكد على الجانب التنظيمي للثقافة في حين يذهب البعض إلى اختزال الثقافة إلى مجرد رموز أو خبرات نفسية وأشكال للتفكير . في حين يذهب بعض الأنثروبولوجيين الأمريكان أبعد من ذلك ، فهم يركزون على الجانب العرقي والعنصري للثقافة .

أما بالنسبة لعلم الاجتماع الماركسي فهو يؤكد بأن الثقافة هي المجموع الكلي المحدد تاريخيا للعادات والمعرفة والأفكار والأفعال لدى الناس والمرتبطة عضويا بتطور الصراع الطبقي وبتطور العمل ووسائله

---

[٢٣] احمد الخشاب – دراسات انثروبولوجية ، ط ؟ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٤١.

[٢٤] عاطف وصفي – الانثروبولوجيا الثقافية ، ط ؟ دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٦.

مع التركيز على الجانب المادي والتكنيكي الإبداعي وعلى وسائل الإنتاج كمستويات أساسية وجوهرية في الثقافة[٢٥] .

والثقافة كمفهوم ومصطلح واسع ومعقد ، وإن كثرت التعاريف حولها وتعددت بشكل هائل والتي تعكس مدى الاختلاف والتباين في دراستها والتناقضات التي تقوم عليها ، فإن بين معظم هذه التعاريف اتفاقا عاما على أسس وعناصر جوهرية مشتركة .

ومن بين هذه العناصر تأكيد الجانب الاجتماعي للثقافة نتيجة للتفاعل الاجتماعي بين الإنسان والمجتمع وتأكيد أسبقية وجود الإنسان على الثقافة واعتبار الإنسان بدونها نوعا معينا من الحيوان ذلك لأن السمة المميزة لمجموعة بشرية معينة هي الثقافة ، سواء كانت هذه المجموعة عرقية أو دينية أو قومية أو طبقية ، وانتقال هذه الخاصية المميزة من جيل إلى آخر عن طريق التعلم والتوارث الاجتماعي واكتساب للسلوك والخبرات والمعتقدات التي أقرتها الجماعة ، تشكل العنصر الأساسي في بقائها وتطورها كمجموعة بشرية اجتماعية متميزة .

مما تقدم يتضح بأن الثقافة ضمن الإطار الأنثروبولوجي ، هي سلوك مكتسب وتوارث اجتماعي وضرورة أساسية وجوهرية لكل إنسان عضو في جماعة بشرية ، فلا يمكن العيش ككائن اجتماعي بدونها ، مادامت تحدد نمط الحياة وأساليب إنتاج الحاجات الضرورية للحياة وديمومتها ، فالثقافة هنا كمفهوم اجتماعي ترتبط بجميع أفراد المجتمع واكتسابها شيء حتمي وإلاّ تحول الإنسان إلى نوع معين من الحيوان .

---

[٢٥] افرام داوود شبيرا – مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩.

لذلك فإن الثقافة هنا ليست حكرا وخاصية مميزة لفئة معينة من النـــاس ، وهم أعضاء في مجتمعهم ، لكي نستطيع تسميتهم بـــالمثقفين ، بـــل هـــي خاصية أساسية وجوهرية لكل أفراد المجتمع الواحد سواء أكـــان مجتمعـــا قوميا أو طبقيا ، وبالتالي فإن دراسة الثقافة ضمن هذا الإطـــار لاتطـــرح مشكلة تحديد المثقف ولاتشكل تلك المـــادة الأساســـية لنشـــاطه إلاّ بقـــدر كونه عضوا في الجماعة ومتوارثـــا لثقافتهـــا ، مادامـــت هـــذه الثقافـــة تشكل العنصر الأساس للنشاط الاجتماعي للكـــل ولـــيس للـــبعض الـــذين نسميهم – المثقفين – .

الثقافة في الإطار الأيديولوجي

لا شك في ان مفهوم الايديولوجيا من أكثر المفاهيم شيوعا وتداولا ولكن معناه من أكثر المعاني إثارة للجدل . ومن ثم هو أقل المفاهيم ثباتا . فهو عند بعضهم مفهوم علمي وعند آخرين مبهم ومبتذل بل يمكن حتى ان يكون سُبة[٢٦] .

استخدم مصطلح الايديولوجيا بدلالات متعـــددة كـــان مـــن بينهـــا استخدامه مرادفا لعلم الأفكار ولما كان التحليل هو المنهج الذي يعترف به العلم ويطبقه ، أصبحت الأيديولوجيا تعني تحليـــل الأفكـــار ، أي تحليـــل مصادرها ، باعتبار الأفكار مصادر للأيديولوجيا ، وعلى هـــذا الأســـاس اكتسبت الأيديولوجيا أي علم الأفكار وتحليل مصادرها معنى جديدا وهـــو نظام فكري معين[٢٧] .

---

[٢٦] عبد الغني عماد – مصدر سبق ذكره ، ص ٦٧.

[٢٧] انطونيو غرامشي – قضايا المادية التاريخية ، ترجمة – فواز طرابلســـي ، ط ؟ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٧٠.

وبين الفكر والإنسان ، كواقع موضوعي ، علاقة ترابط وتفاعل ، فعندما يكتسب الإنسان فكرا معينا عن طريق النظرية ومن ثم الممارسة كمرحلة لاحقة لتكامل النظرية عبر فلسفة الممارسة (البراكتس) ، القائمة على الترابط العضوي بين النظرية والممارسة وانبثاق النظرية من رحم الممارسة ، وعندما يتطور هذا الفكر من مجرد معرفة إلى الممارسة الواعية لتناقضات المجتمع والطبيعة ، وعندما يصبح الفكر أداة منهجية لتحليل القوى المتناقضة ، وعندما يرتبط بمصالح فئة أو طبقة من الطبقات الرئيسة في المجتمع ، عند ذلك يشكل هذا الفكر محتوى وجوهرا لبنية فكرية معينة ضمن هذه البنية تظهر تلك العلاقة المترابطة والمتفاعلة بين الفكر والإنسان والواقع الموضوعي[٢٨] .

وعندما يتحرك الفكر ضمن هذه البنية ليتفاعل مع الواقع فإنه لايملك حرية ذاتية في التحرك والتطور إلاّ ضمن الأطر المحددة لتلك البنية التي يشكل الفكر جوهرها . لذلك فإن آفاق الإمكان والاستحالة للفكر في التطور مقرر بتلك المعايير المحددة في البنية الفكرية ، معنى هذا أن تحرك الفكر في استكشافه الواقع ، لايخضع لإرادة الذات أو الفرد ، أي لإرادة الفكر بل للبنية الفكرية التي يتطور في إطارها[٢٩] .

ومما لاشك فيه أن لهذه البنية الفكرية طابعا اجتماعيا وتاريخيا يحدد وضعها في البنية الاجتماعية الشاملة ، أي بما معناه أن تحديد البنية الفكرية لايكون إلاّ في إطار البنية الاجتماعية الشاملة . ولما كانت

---

[٢٨] افرام داوود شبيرا – مصدر سبق ذكره ، ص ٣١.

[٢٩] المصدر نفسه ، ص ٣١.

الأيديولوجيا هي نتاج حاجة وضرورة الإنسان لنظام فكري شامل ، فإن الأيديولوجيا تكون أعم وأشمل من البنية الفكرية التي يشكل الفكر جوهرها . وعلى هذا الأساس ، فإن هذا الفكر ضمن هذه البنية الفكرية ، وبصورة أعم وأشمل ضمن البنية الأيديولوجية يشكل المصدر الأساس والقاعدة الفكرية المنظمة للإنسان المفكر الذي اصطلح على تسميته بالمثقف ، ذلك الإنسان الممتلك للموهبة والمقدرة الفكرية والإبداعية لاكتشاف الواقع وتناقضاته عبر نشاطه الفكري المقرون بالممارسة الواعية ، ليصبح هذا النشاط الفكري مفهوما جديدا للثقافة يختلف عن المفهوم الأنثروبولوجي ، فالثقافة هنا ، ليست مجرد طرائق للسلوك أو الحياة ، كما اتفق على ذلك علماء الأنثروبولوجيا الثقافية بوجه خاص ، بل الثقافة على وفق هذا المفهوم تعبر عن فهم واعٍ للحياة ، واغتراف مستمر من المعارف والعلوم الفلسفية أو القراءات الثرة للتاريخ والتراث ، وللرواية والنثر وما إلى ذلك . . . والثقافة هنا هي الإمكانية للإجابة وطرح الحلول للتناقضات والمشكلات اليومية والتي تتطلب ذلك قدرة عالية من الوعي الناضج لايوفرها إلاّ المزيد من الإطلاع النظري ، أي ممارسة عملية التثقيف المستمر ، ومن خلال التطبيق العملي الميداني للأفكار .

فالثقافة بشكلها الفكري ضمن إطارها الأيديولوجي ليست ملَكَة عقلية ومقدرة لاكتساب المعرفة فقط وليست قدرة العقل على الفهم أو عمليات الفكر الراقي والنشاطات الذهنية ، ولا هي الدقة في التفكير أو التهذيب والتعلم الجيد والأخلاق الجيدة ، وتقدير نوع معين من الفن وتذوق موسيقى بتهوفن . كما إن الثقافة في هذا الجانب الذهني ليست ذلك المفهوم

الشعبي بمعنى التهذيب والقدرة على استيعاب بعض مظاهر الحضارة الجديدة . بل هي بالإضافة إلى ذلك تقوم على الجانب المادي أيضا الكامن في الواقع الموضوعي المرتبط بعلاقة تفاعل وترابط مع الفكر عبر الممارسة الواعية له . فالثقافة بهذا المعنى تقوم على جانبين:- جانب فكري وجانب مادي ، جانب نظري وجانب تطبيقي . وبمعنى آخر أنها تقوم على الفكر والممارسة ، فإذا كان الجانب الفكري يقصد به القدرة على استيعاب المعارف والدقة في التفكير فإن الممارسة تعني النشاطات والفعاليات التي يقوم بها الإنسان من أجل خلق شروط أفضل لوجود المجتمع وتطوره . واختزال مفهوم الثقافة للجانب الفكري فقط هو انحراف نحو المثالية والسلفية ، واقتصارها على الممارسة من دون فكر ونظرية ، يعني الوقوع في العفوية واللاإرادية[٣٠] .

فالثقافة بهذا المفهوم ، هي كما قال طيب تيزيني :- النشاط والإنتاج الفكري والروحي الذي ينجزه أناس متميزون بكونهم نشطين ومنتجين في هذا الحقل . إنهم المثقفون . هذا النشاط والإنتاج الفكري الذي لا يتم إنتاجه إلاّ عبر التفاعل والترابط بين المثقفين وما يمثلونه من مبادئ وأفكار سياسية واجتماعية واقتصادية وتقنية وبين الواقع الموضوعي الذي يشكل التربة الخصبة لنشوء هذه الأفكار والأساس المادي لها ، فالثقافة ليست تيارا قائما خارج المجتمع وحركته التطورية ، وإنما تنبثق من رحم الواقع من الأساس المادي للمجتمع معبرا في سياق تطوره ، عن مجمل

---

[٣٠] المصدر نفسه ، ص ٣٣.

الظروف المادية للمجتمع على هيئة مزيج من المعارف وعادات العمل والخبرات وأسلوب التفكير[٣١] .

والثقافة بهذا المعنى الأيديولوجي ظاهرة من ظواهر المجتمع ومن نتاج المجتمع وليست من نتاج خلق علوي وغيبي . وكما يقول ماو تسي تونغ بهذا الصدد :- "إن الأفكار السديدة لا تنزل من السماء ولا هي فطرية في عقل الإنسان بل إنها تأتي من الممارسة الاجتماعية" .

ولما كانت الثقافة نابعة من الواقع عبر الممارسة الاجتماعية فإنها تهدف هذا الواقع أيضا ، إما تغيره أو في تكريسه طبقا لطبيعة الثقافة الأيديولوجية ولنوعية الطبقة أو الفئة الاجتماعية وموقعها من السلطة . وتغيير هذا الواقع أو تكريسه عبر الممارسة يتطلب الأساس فهم هذا الواقع وتناقضاته لتؤدي الثقافة فعلها المؤثر في المجتمع ، دون هذا الفهم للواقع تصبح الثقافة قاصرة في فاعليتها وكذلك دون الممارسة الاجتماعية تبقى الثقافة ضربا معينا من الفهم التجريدي النظري ، ونوعا معينا من الفكر والمعرفة مخزونا في صندوق الدماغ . ولكي تؤدي الثقافة فعلها المؤثر يجب أن تصاغ من إطار نظري أيديولوجي ، فالفكر والثقافة لايمكن أن توجد كما سبق وأكدنا ، إلاّ ضمن بنية وأيديولوجية ، وعلى هذا الأساس فإن كل ثقافة معينة هي انعكاس أيديولوجي لسياسة مجتمع معين واقتصاده ، وإن الثورة الثقافية هي انعكاس أيديولوجي للثورة السياسية والثورة الاقتصادية وهي تعمل على خدمتها ، وإن الصراع الثقافي ما هو

---

[٣١] طيب تيزيني – حول مشكلات الثورة الثقافية ، ط ؟ ، دار دمشق ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٤.

إلاّ انعكاس للصراع السياسي والاقتصادي وإن هيمنة وسيادة ثقافة معينة يعني سيادة وهيمنة سياسة واقتصاد معينين لمجتمع أو فئة أو طبقة معينة .

وفق هذه المنطلقات يمكن القول عن هذه الثقافة ضمن إطارها الأيديولوجي بأنها النتاج والنشاط الفكري عبر الممارسة الواعية لمجموعة من الناس بهدف تغيير أو تكريس الواقع الاجتماعي ، فالثقافة التي نقصدها هنا هي الوعي المتطور لا بل الوعي المتطور دوما وعي الإنسان لنفسه وللعالم الذي يحيا ويعمل ويناضل فيه[٣٢] .

الثقافة في الإطار الاجتماعي/السياسي

لما كانت الثقافة في علاقة تفاعل وترابط مع الواقع الموضوعي للمجتمع من خلال تلك البنية الفكرية والأيديولوجية التي تحددها ، ولما كانت الأيديولوجيا تعبيرا فكريا عن نظام اجتماعي وسياسي معين ، فالثقافة هنا تعكس طبيعة هذا النظام بمجمل تناقضاته الاجتماعية والسياسية ليضفي عليها طابعا اجتماعيا سياسيا متناقضا يجعلها تستقر في وحدات اجتماعية تعكس فهما وأسلوبا معينا للثقافة تعبر عن مصالح وطموحات أعضاء هذه الوحدات الاجتماعية .

وعلى هذا الأساس يكون الوضع الثقافي في كل مجتمع غير متساو فليس هناك ثقافة متجانسة ، هناك ثقافتان ؛ ثقافة التقدم والمستقبل الساعية نحو التغيير والتطور المستمر ، وثقافة التخلف والعداء نحو التغيير والساعية نحو تكريس الواقع الاجتماعي فكل ثقافة هي تنافسية بل من

---

[٣٢] افرام داوود شبيرا – مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤ و ٣٥.

الواجب أن تكون تنافسية وإن وحدتها التركيبية تنطوي في كل حالة على تنافس .

غير أن التناقض والتنافس بين ثقافتين في المجتمع الواحد لاينكر وجود إطار ثقافي عام لمجموع الأمة في المجتمعات الطبقية ووجود قيم إنسانية تسعى كل طبقة أو فئة لتحقيقها وفق أسلوبها الخاص ، إلاّ أن الثقافة بصورة عامة تبقى غير متجانسة مهما كان هذا الإطار وهذه القيم مؤثرة . كما وإن هذا التناقض والتنافس يؤكد فعالية الثقافة وديمومتها فبدونه تبقى الثقافة راكدة مشلولة غير قابلة للتطور والتأثير في الثقافات الأخرى كما كانت الحالة في ثقافة المجتمعات البدائية المشاعية .

ويختلف موقف الاتجاهات الفكرية من التركيب الاجتماعي السياسي للثقافة باختلاف معايير تقسيم المجتمع والصراع الاجتماعي . فبالنسبة للماركسية التي تفهم المجتمع وتناقضاته على أساس طبقي ، والتاريخ بالنسبة لها هو صراع بين الطبقات الاجتماعية ، سواء أكان هذا الصراع في ميادين السياسة أو الاقتصاد أو الفلسفة فهو تعبير عن الطبقات المالكة لوسائل الإنتاج والطبقات غير المالكة لها .

وقد أشار ماركس وانجلز بكل وضوح إلى أن التقسيم الفعلي للعمل ظهر عندما انقسم إلى عمل ذهني وعمل يدوي ، فهذا التقسيم كان أول مصدر لظهور الوعي وهو متحرر من الواقع ومرتبط بالأخلاق وبالنظرية وبالدين والفلسفة . وإذا كانت الماركسية تفهم الثقافة هنا كأيديولوجيا ضمن جملة ظواهر سياسية وقانونية وأخلاقية وجمالية ؛ أي ضمن ما يسمى بالبنية القومية ، فإن الثقافة ضمن هذا التقسيم للعمل ستقوم على صراع

طبقي بين جماعة تعمل وأخرى تفكر . لهذا يمكن القول بأن الثقافة مرتبطة بمرحلة تاريخية معينة وهي مرحلة التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري . أي حينما وجد مجتمع اختصت فيه مجموعة من الناس تخطيط أموره السياسية والاقتصادية والثقافية ومجموعة أخرى اختصت بالإنتاج الفعلي والمادي ، وعلى هذا الأساس فإن انقسام المجتمع إلى طبقات متمايزة ومتناقضة هو الإطار الأول الذي تولدت وتبلورت فيه الثقافة[٣٣] .

ولما كانت هذه الثقافة مرتبطة بنشوء المجتمع الطبقي وبتقسيم العمل إلى يدوي وذهني فإنها تسعى دائما وأبدا إلى تكريس هذا الواقع الطبقي وجعله شيئا مرتبطا بطبيعة المجتمع يستوجب الاحترام والالتزام به فتصبح ثقافة الطبقة المسيطرة على القوى المادية ثقافة المجتمع بالدرجة الأولى وتسعى إلى إيهام الآخرين بأن ثقافتها هي ثقافة الكل من خلال إكسائها بصفة الشمولية .

إن هذا المفهوم الطبقي للثقافة القائم على انقسام العمل إلى ذهني وآخر عضلي لدى الماركسية لا يمكن تعميمه على كل المجتمعات البشرية ، كما إنه لا يمكن أن يكون مصدرا لنشوء الثقافة إلاّ بالنسبة للثقافة الطبقية وبصورة أصح مصدرا لإضفاء الصفة الطبقية للثقافة . فاعتبار الثقافة تاريخا معينا مرتبطا بنشوء الطبقات يعني أن الثقافة ظاهرة غير خالدة ، فإذا كان لها بداية فلابد أن يكون لها نهاية ولكن من البديهي أن لانهاية للثقافة مادامت ترتبط بالمجتمع الإنساني وإنما النهاية هي للثقافة الطبقية في مرحلة المجتمع اللاطبقي . ففي المجتمعات المشاعية التي لم

---

[٣٣] طيب تيزيني – مصدر سبق ذكره ، ص ٢١٨.

تعرف الطبقات بمفهوم المادية التاريخية كانت النشاطات الذهنية كموهبة الخطابة والقدرة على حسم المنازعات معايير يعتمد عليها في اختيار زعماء القبائل ، إلاّ أنهم لم يكوّنوا ثقافة منفصلة ومتميزة عن بقية أفراد التشكيلة الاجتماعية[٣٤] .

إن انتقال المجتمع إلى مرحلة العبودية جسد هذا الانقسام بين جماعات متميزة ، بين من يملك وآخر لايملك ، مما تولد عن ذلك نشوء ثقافة خاصة ، وأسلوب معين لفهم الحياة وممارستها ، بكل طبقة مع بقاء الإطار العام الثقافي لمجموع الشعب .

ولما كانت الثقافة وتطورها مرتبطة بمراحل تطور وسائل الإنتاج المادية والروحية وقواها . فمنذ انحلال المجتمع العبودي وتطور العلوم والإنتاج أصبح من الضروري للطبقات المستغلة أن تتقن بعض المعارف والخبرات الضرورية لعملية الإنتاج . ويظهر هذا الأمر بشكل جلي في المجتمعات الرأسمالية المتطورة حيث تتطلب العملية الإنتاجية التكنولوجية المعقدة امتلاك العمال والمستخدمين شتى أنواع المعارف والعلوم بما يخدم ربحية الرأسمالي والطبقات المستغلة . فالتصنيع والإنتاج الكبير دافع قوي لتعميم التعليم والثقافة للجميع بحيث يجعل التمييز بين من يفكر وبين من يعمل صعبا ، مادام أمر أداء أبسط عمل يدوي وإنتاجي يتطلب التفكير وإتقان المعرفة بخصوصه .

لذلك يمكن القول ، مما تقدم بأن انقسام العمل إلى عضلي وذهني لايمكن اعتباره مصدرا لنشوء الثقافة بل إنه أضفى عليها صفة طبقية وهو

---

[٣٤] افرام داوود شبيرا – مصدر سبق ذكره ، ص ٣٨.

تعرف الطبقات بمفهوم المادية التاريخية كانت النشاطات الذهنية كموهبة الخطابة والقدرة على حسم المنازعات معايير يعتمد عليها في اختيار زعماء القبائل ، إلاّ أنهم لم يكوّنوا ثقافة منفصلة ومتميزة عن بقية أفراد التشكيلة الاجتماعية[٣٤] .

إن انتقال المجتمع إلى مرحلة العبودية جسد هذا الانقسام بين جماعات متميزة ، بين من يملك وآخر لايملك ، مما تولد عن ذلك نشوء ثقافة خاصة ، وأسلوب معين لفهم الحياة وممارستها ، بكل طبقة مع بقاء الإطار العام الثقافي لمجموع الشعب .

ولما كانت الثقافة وتطورها مرتبطة بمراحل تطور وسائل الإنتاج المادية والروحية وقواها . فمنذ انحلال المجتمع العبودي وتطور العلوم والإنتاج أصبح من الضروري للطبقات المستغلة أن تتقن بعض المعارف والخبرات الضرورية لعملية الإنتاج . ويظهر هذا الأمر بشكل جلي في المجتمعات الرأسمالية المتطورة حيث تتطلب العملية الإنتاجية التكنولوجية المعقدة امتلاك العمال والمستخدمين شتى أنواع المعارف والعلوم بما يخدم ربحية الرأسمالي والطبقات المستغلة . فالتصنيع والإنتاج الكبير دافع قوي لتعميم التعليم والثقافة للجميع بحيث يجعل التمييز بين من يفكر وبين من يعمل صعبا ، مادام أمر أداء أبسط عمل يدوي وإنتاجي يتطلب التفكير وإتقان المعرفة بخصوصه .

لذلك يمكن القول ، مما تقدم بأن انقسام العمل إلى عضلي وذهني لايمكن اعتباره مصدرا لنشوء الثقافة بل إنه أضفى عليها صفة طبقية وهو

---

[٣٤] افرام داوود شبيرا – مصدر سبق ذكره ، ص ٣٨.

لم يخلق الثقافة بمفهومها العام بل أضاف إليها تراكمات جديدة وتجارب جديدة مرتبطة بمرحلة تطور وسائل وقوى الإنتاج المادية والروحية .

أما بالنسبة للكتّاب الغربيين ، فإن كان بعضهم يقر بانقسام الثقافة وتعددها وفقا لانقسام المجتمع إلى طبقات ، إلاّ أن مفهومهم عن الطبقة وعن الثقافة يختلف كليا عن المفهوم الماركسي . فإذا كان هذا الاتجاه الأخير يقر بأن ثقافة الطبقات المستغلة هي ثقافة ثورية تقوم على عناصر ديمقراطية ، اشتراكية ، فإن ثقافة الطبقة الدنيا بالنسبة للكتّاب الغربيين هي ثقافة منحطة ومنحرفة لاتعير أي أهمية للقواعد والقوانين السائدة في المجتمع ، وهي ثقافة ذات فرص محدودة للتطور إن لم تكن غير قابلة على ذلك . فهم يرون بان ثقافة الطبقة الدنيا هي ثقافة عقيمة مصدرها طرقات الأحياء الحقيرة . لهذا يسمونها ثقافة الشارع . وليس لهذه الثقافة أي مصلحة في المجتمع ولا في السياسة أو في المستقبل لكونها ثقافة غير سياسية بالأساس وبدون أي تأثير على النشاطات السياسية ، حتى إذا كانت ثقافة الطبقة الدنيا متكاملة في تركيب أيديولوجي، سوف يكون من الصعب قبول المنطق الذي تعتمد عليه لتنفذ تماما إلى عالم السياسة[٣٥] .

إن البنية الفكرية التي تلف آراء هؤلاء الكتّاب وغيرهم لاتسمح بتجاوز واقع المجتمع الرأسمالي والتعمق في ثقافته المهيمنة التي لاتمنح فرص التزود بالمعرفة والعلم إلاّ للأقلية الحاكمة ، وإن منحت هذه الفرص فأنها تكون محدودة وتخدم الثقافة المهيمنة وإنتاجها المادي .

---

[٣٥] المصدر نفسه ، ص ٣٩ و ٤٠.

فثقافة الطبقات الدنيا لم تنشأ بتصميم وإرادة ذاتية بل هي نتاج الثقافة الاستغلالية والربحية التي تسود مقدمة المفاهيم الرأسمالية بحيث احتوت وامتصت عناصر الديمقراطية والإنسانية لثقافة الطبقات الدنيا وجعلتها مجردة من أي فرص للتقدم والتطور . ومع هذا فثقافة هذه الطبقات تصر على البقاء والتشبث بالتقدم والتطور وفقا للعلم والمعرفة التي فرضتها العملية الإنتاجية التكنولوجية رغم ندرتها .

أما بالنسبة للعالم الاجتماعي الألماني كارل مانهايم الذي كان له أثره الكبير في كثير من السوسيولوجيين ولاسيما في حقل سوسيولوجية المعرفة والثقافة ، فهو يذهب إلى اعتبار الفن والدين والفلسفة وغيرها من العلوم الاجتماعية علوما ثقافية أو علوما ضمن حقل الثقافة . فعندما يبحث في طبيعة الثقافة الاجتماعية السياسية فإنه يتخذ من النظام السياسي والفئة القابضة على السلطة ومن يمثلونهم من النخبات المختارة معيارا لتصنيف الثقافة اجتماعيا وسياسيا . فالديمقراطية بالنسبة له ليست قدرا محتوما في السياسة فقط بل في الحياة الثقافية والفكرية أيضا ، ومشكلة الديمقراطية تتجسد في الصراع الدائر بين الأرستقراطيين والديمقراطيين مما ينعكس هذا الصراع على الثقافة وتصبح مشكلة الديمقراطية ظاهره ثقافية عامة[٣٦] .

ولما كانت الاتجاهات والمناهج والنظريات التاريخية والسوسيولوجية التي هي من ضمن حقل الثقافة تأتي دائما إلى الوجود وهي مرتبطة بصلة وثيقة بالمواقف الاجتماعية المحددة والمصالح الفكرية

---

[٣٦] المصدر نفسه ، ص ٤٠ و ٤١ .

والثقافية للجماعة أو الطبقة الاجتماعية ، ولما كانت إجراءات صنع القرار السياسي خاضعة بدرجة أقل أو أكثر للنخبات الثقافية التي تعبر عن مصالح الجماعات والطبقات المختلفة ، لذلك تحاول هذه النخبات إبراز الصفات المميزة لثقافة كل طبقة أو فئة اجتماعية أو سياسية لتلك التي تعمل لصالحها ، ضمن حقول الفن والفلسفة والدين . وإذا كانت مشكلة الديمقراطية تتمثل في الصراع بين الأرستقراطيين والديمقراطيين ، فإن هذا يحتم اشتداد الصراع والتنافس بين الثقافة الديمقراطية والثقافة الأرستقراطية فيحول دون ظهور ديمقراطية الثقافة بسبب هذا الصراع من جهة وبسبب كون الثقافة سهلة المنال فقط للنخبات من جهة أخرى واستخدامها لأغراض غير موضوعية تتنافى مع طبيعة العلم والثقافة القائمة على الموضوعية والحيادية ، لهذا فإن ارتباط الثقافة بالسياسة والمصالح الطبقية يؤدي إلى انعكاس الأزمات السياسية على الثقافية وبالتالي نكون إزاء أزمة ثقافية .

ومما يتضح أيضا إنه على الرغم من أن مانهايم يقرّ بالتناقض وعدم التجانس في ثقافة أمة من الأمم إلاّ أنه يرى في ذلك حالة غير ديمقراطية فهذه الأخيرة لاتتحقق عنده إلاّ عندما تعطي الثقافة للجميع دون أي تميز أو تورط في المصالح الطبقية والسياسية خدمة للموضوعية العلمية والثقافية ، إلاّ أن هذه الدعوة لاتعدو أن تكون إلاّ خدعة ليبرالية تحاول دمج القوى الاجتماعية والسياسية المتناقضة في لعبة الديمقراطية ولاتعدو أن تكون سوى دعوة للتعايش الطبقي ضمن ثقافة ديمقراطية في مجتمع رأسمالي قائم أساسا على تناقض طبقي حاد ، في حين أن المنطق

لايقبل بمثل هذه الدعوات لأن الثقافة لاتتخذ اتجاها موضوعيا إلاّ عندما ترتبط بطبيعة المجتمع وتناقضاته وتعبر عنها .

أسلمنا إلى القول فيما سبق بأن الثقافة ترتبط بطبيعة المجتمع وتناقضاته وتعبر عنها ، حيث أن اختلاف الواقع الاجتماعي والسياسي في بلدان العالم الثالث وتعدد تناقضاتها ينعكس بصورة مباشرة على الثقافة وتتخذ طابعا متميزا بخاصية هذه المجتمعات .

ولما كان التناقض بين الاستعمار والشعوب المستعمرة هو أكبر تناقض تاريخي عرفته القرون الأخيرة وأكبر طغيان على الوجود الإنساني ، ولم يعد هناك تناقض أكبر وأعمق من التناقض بين العالم الثالث وبين الإمبريالية ، لذلك فالثورة القومية ضد الاستعمار تصبح إذن هي الأساس لأن الاستعمار في الشعوب المستعمرة هو التحدي الأساس هو الفعل الذي لابد له من رد فعل . وكل ما يتبع ذلك من تحولات اقتصادية واجتماعية وما ينشأ عنها من صراعات هي جزء من المعركة الأساسية[٣٧] .

فالاستعمار عدوان قومي بالدرجة الأولى والتحدي له يتخذ في مختلف مناحي الحياة طابعا قوميا ثوريا ذا مضمون اجتماعي مرتبط بطبيعة النضال ضد الاستعمار فيضفي على هذا الطابع القومي طابعا طبقيا نتيجة لما أفرزه الاستعمار من شرائح اجتماعية طفيلية على المجتمع ونتيجة للتراكمات البدائية والقيود الاستغلالية المتمثلة في الإقطاع

---

[٣٧] منيف الرزاز – فلسفة الحركة القومية ، ط؟ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٧.

والبرجوازية والشرائح الاستغلالية المركبة الأخرى . لذلك فالتناقض الخارجي مع الاستعمار وملازمته للتناقض الداخلي مع الإقطاع والبرجوازية يترك أثره البارز على طبيعة ثقافة هذه الشعوب التي تشكل أكثريتها الساحقة ، طبقات مسحوقة مما يدفعنا للتعامل مع شعوب مستغِلة وأخرى مستغَلة .

ولما كان الاستعمار احتلالا ثقافيا تقطع فيه صلات الشعب المستعمَر بثقافته وحضارته وتراثه يخلع من جذوره ثم لايصل إلى هذا الشعب من الثقافة الغربية إلاّ ما يصل إلى النخبة التي يحتاج إلى جهدها الاستعمار لتخدمه مشوبة بكثير من التبشير الديني والتبشير للقيم التي يقوم عليها الاستعمار ، فإن هذا يترك أثره المباشر أيضا على ثقافة هذه الشعوب ليعطيها مضمونا نضاليا وتقدميا ذات دلالات اجتماعية معينة مرتبطة بطبيعة كل قطر وبمسار تطور ثورته القومية .

هذه الطبيعة الاجتماعية المميزة للثقافة نجدها لدى معظم مثقفي حركات التحرر الوطنية في العالم الثالث وزعمائها . فبالنسبة إلى فرانز فانون تتخذ الثقافة طابعا نضاليا قوميا من كون السيطرة الاستعمارية سيطرة شاملة وكلية ولاتكتفي بأن تلغي ثقافة الشعوب المستعمَرة من الوجود بل تحمل المستعمَر على الاعتراف بتخلف ثقافته وتبنّي تلك الثقافة التي تخدم أهداف الهيمنة . ففي ظل هذه الهيمنة ، لايمكن تصور حياة ثقافية قومية أو ابتكارات وتبدلات قومية . كما وإن الكفاح في سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح في سبيل الحرية القومية وإن احتقار الشعب واضطهاد الأمة ومنع الثقافة شيء واحد ، لذلك فإن الثقافة القومية تولد من

خضم النضال القومي في المعارك والسجون وأمام المقصلة وفي المراكز العسكرية .

ويرى فانون ، أن الكفاح المنظم الواعي الذي يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافي ممكن وليس نجاح الكفاح وحده الذي يهب للثقافة قيمة وصدقا وقوة بل إن معارك الكفاح نفسها تنمي في أثناء انطلاقها مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة ، فالكفاح لاينمي الثقافة أثناء اندفاعه وكفاح التحرير لايرد إلى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة ولايمكن مادام يهدف إلى إعادة تنظيم العلاقات بين البشر ، إلاّ أن يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب . ويضيف فانون بقوله – إن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان أيضا على القيم التي لازمت معركة التحرير . لذلك فالثقافة تجعل من الوعي القومي أرقى شكل من أشكال الثقافة وتصبح تعبيرا صادقا عن ضمير الأمة وعن حركتها ووعيها لطبيعة المجتمع ومسار تطوره وأداة من أكثر الأدوات خطورة في عملية النضال القومي وهدفا من أسمى أهداف النضال[٣٨] .

من خلال ما تقدم . . يتضح بأن الثقافة ليست ذات طبيعة متجانسة ومتساوية نتيجة لارتباطها بتطور المجتمع البشري وتناقضاته . فالثقافة بهذه الطبيعة غير المتجانسة يمكن تصنيفها وفقا للأطر الفكرية الرئيسة

---

[٣٨] فرانتز فانون – معذبو الارض ، ط٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٠.

والثانوية التي تحتويها لتعطيها مضمونا اجتماعيا وسياسيا معينا . لذلك يمكن فهم الثقافة بالصور الرئيسة التالية :-

١- **الثقافة القومية** :- وهي الثقافة الخاصة بكل أمة التي تميزها عن غيرها من الأمم وتعد تعبيرا عن أسلوب حياتها ومراحل تطورها في مختلف مجالات الحياة ، وعلى الرغم من وجود تناقضات وتنوع المصالح داخل الأمة الواحدة إلاّ أنها تبدو ثانوية بالنسبة إلى هذه الثقافة في مرحلة سيادتها وارتباطها بالجماهير لتغدو ثقافتها وثقافة الأمة كلها .

٢- **الثقافة الطبقية** :- وهي ثقافة تولد في الثقافة القومية المكتملة الجوانب وتعبر عن مجمل مصالح الطبقة المعينة . فثقافة الطبقة المهيمنة على زمام الأمور هي الثقافة السائدة ، واختلاف اتجاهات وعايات الثقافات الطبقية لايعني انفصال بعضها عن البعض بل تجمعها خلفية قومية مشتركة تكمن في تلك العناصر الثقافية القومية والتي تعبر عنها كل طبقة وفق أسلوبها وفهمها الخاص .

وفضلا عن هذين الشكلين الرئيسين للثقافة هناك صور أخرى ثانوية للثقافة إلاّ أن تأثيرها في الحياة العملية في العصر الراهن لم يعد له قوة تذكر إلاّ إذا ارتبطت بالثقافة القومية أو الثقافة الطبقية وأصبحت من مصادرها الأساسية ومن هذه الثقافات الثقافة الإنسانية والثقافة العرقية والثقافة الدينية وغيرها .

غير أن وضع الثقافة ضمن هذه الأطر ليس المقصود منه عزل بعضها عن بعضها الآخر أو أن لكل منها خصوصيتها المغلقة الضيقة بل

الغرض من ذلك هو تحديد الرئيسي والثانوي ، العام والخاص ، وبيان تأثير كل واحد منهم في الآخر والتفاعل والترابط الجدلي الذي يفعل فعله في كل ثقافة عبر التطور التاريخي للمجتمع ، فقد يبدو الرئيسي في مرحلة معينة ثانوي والثانوي رئيسي في مرحلة أخرى وفقا لظروف ومراحل تطور المجتمع . فمن خلال هذا التفاعل بين الرئيسي والثانوي ، بين العام والخاص ، ومن خلال وضع الثقافة في إطارها الاجتماعي المحدد يمكن تحديد دور المثقف في المجتمع وبيان اتجاهه وتفسيراته حول المجتمع والتحولات الاجتماعية . فمن خلال هذه الأطر ومن خلال طبيعة الثقافة يتحدد نشاط المثقف وغاياته ومن خلال النشاط الفكري المقرون بالممارسة يتحدد اتجاهه في التغيير أو التكوين .

الثقافة في الإطار الديني

يمثل الدين ثقافة كاملة لشعب أو أمة أو حضارة ليس في كونه مجموعة نصوص وتعاليم وقيم فحسب ، بل هو كيان مجسد اجتماعيا ومبلور بالممارسة في أنماط وتقاليد وأفعال ، أي من حيث صيرورته نظاما من الممارسات فضلا عن كونه نظاما من التصورات بغض النظر عن طريقة استيعابه وطرق التعبير عنه من طرف المؤمنين به .

الدين ثقافة كاملة ، فهو يعبر عن رؤية للعالم ، للطبيعة والوجود والانسان ، وهو كذلك أيضا لأنه يقدم تصورا لبناء الاجتماع الانساني على نحو يغطي أحيانا أدق تفاصيل هذا الاجتماع أقتصادا وسياسة وأخلاقا وأحوالا شخصية . ليس يهم أن سعت العقيدة الدينية الى بناء أمة روحية – شأن المسيحية – أو الى بناء أمة أجتماعية وروحية – شأن الأسلام ، بل

الأهم انها قامت على تعاليم رسمت للمنتسبين اليها تخوم الجـائز وتخـوم الممنوع ، وقذفت في روعهم الجمعي مبادئ تحولت الى قواعد صـارمة للفكر والسلوك ، وأفكارا تحولت الى عقائد راسخة لا تقبل المراجعة فـي جانبها اللاهوتي ، حتى وإن كانت تقبل بعض التغيير في الجوانب المتصلة بميدان الاجتماع المدني[٣٩] .

ينطلق الدين إذنْ من قبول نماذج روحانية محددة لينتقل مباشـرة بعدها الى فرض نماذج اخلاقية وقيمية محددة ، فيصبح بذلك شبكة متكاملة من النماذج الفكرية والمسلكية تؤطر حياة من ينضوي تحت لوائه . الدين هنا يمثل ثقافة بوصفه نمطا من المعرفة بالوجود الطبيعي والاجتمـاعي ، وهو بذلك يختلف عن سواه من أنماط المعرفة كالعلم والفلسفة والأسطورة وسواها ، فله مسلماته التي لا يقوم الايمان بغير الاقرار بها ، وله طريقته الخاصة في بناء أحكامه ، وهي لا تفهم بغير ربطها بنمط الاستدلال فيه . أنه يفرض على مؤمنيه الذين يعتبرهم رعية سلسلة مـن المعتقـدات ذات الطابع الروحاني ، يفترض بها أن تؤدي دور الموجه بالنسبة الى أعمـال الفرد في الأطار الإجتماعي والإنساني . أنه ينطلق من فرضيات مسـبقة هي فرضيات الايمان ، وعلى من يقبل بها ان يعمد الى تبني سلسلة مـن الفرائض تقيد مسلكه الاجتماعي ، أنه ثقافة بوصفه نمطا مغلقا من القـيم والعادات والطقوس والشعائر ، أي طريقة ثابتة الملامح في ممارسة الحياة وفي بناء الاجتماع واعادة إنتاجه . وهو يمثل في الحالتين بنية عقلية كاملة للمجتمع بالمعنى الانثروبولوجي الكامل للكلمة ، أي نمطـا مـن التفكيـر

---

[٣٩] عبد الغني عماد - مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٨.

والسلوك يكتسب منطقا ذاتيا خاصا يمتنع فهمه أو تعديله بمعزل عن شبكة المعاني والدلالات الخاصة به[٤٠] .

وبقدر ما يقوم الدين بتشكيل الثقافة وتعبئتها يقوم أيضا بشحنها بالرموز والمضامين والقيم ، بل يسهم في تشكيل حقلها الخاص داخل الاجتماع المدني ، الذي ليس بالضرورة ان يكون دينيا خالصا بل هو في الواقع الموضوعي يتكون بالتفاعل مع الحقل الاجتماعي بما يحمله من ضغوط وتحديات واستجابات تقضي الى تعبئة المخيال الاجتماعي برموز وقيم وعادات وتقاليد من شأن استثمارها في الحقل الثقافي ان يعيد التوازن الى الذات ويشحنها بالتالي على الأداء الأفضل والأمثل . وهذا يفسر كيف يلعب الدين دورا محوريا في الأزمات الكبرى ، وكيف يجري استدعاؤه والاحتماء بنماذجه في التحديات التي تهدد التوازن الشخصي أو الاجتماعي ، في هذه الحالة يمثل الدين طاقة تعبوية هائلة لشحن العقل الثقافي ، وهو يمتلك نماذج لها قدرة استنهاضية فعالة في مجال الصراعات وفي توفير المناعة والصمود والصبر[٤١] .

إذن ثمة حالتان يمثل الدين في الأولى نسقا كاملا يمد المؤمنين بأنماط متكاملة في ما يتعلق بالقيم وأدراك الوجود ، ويمثل في الثانية عنصرا فاعلا وقدرة دينامية داخل نسق اشمل يتمثل في الاجتماع المدني بأبعاده السياسية والوطنية والقومية والانسانية . وأدراك الفارق بين الحالتين لا يعني ان هناك أنقطاعا بينهما أو أنفصالا منهجيا في آلية

---

[٤٠] المصدر نفسه ، ص ١٣٨ و ١٣٩ .

[٤١] المصدر نفسه ، ص ١٣٩.

اشتغالهما ، لكن يعني ان فهم المجال الحقلي لكل منها ضـــروري لأدراك حركة الثقافة وديناميتها موضوعيا . ففي الحالة الأولى نحتاج الى تحليـــل معرفي ديني ، فيما نحتاج في الحالة الثانية لفهم الواقع تحليلا سوســـيو – ثقافيا يكشف آليات اشتغال الثقافة الدينية في البنية الاجتماعية واســـتثمارها بالتالي للحقل الديني في عملية بناء الثقافة وحركتهـــا والأفعـــال الناتجـــة عنها[٤٢] .

ما يتعلق بالباحثين الغربيين فان بعضهم يرى علاقة الثقافة بالدين بالشكل الآتي :- إن الثقافة ليست إلاّ تجسيما للدين ، وإنها عنـــد بعضـــهم الآخر أشمل من الدين ، وهنا يجب أن نلاحظ أن الفكر الغربي عامة ينظر إلى الدين على أنه قضية ميتافيزيقية تخص الفلسفة ، كما يعد الدين ظاهرة اجتماعية ويعالجه كما يعالج أي ظاهرة أخـــرى مـــن ظـــواهر المجتمـــع ومؤسساته ، ولايرى مانعا إن لم يجد ذلك ضروريا من إخضاع الدين من حيث كونه قضية فلسفية للمفاهيم الفكرية الجديـــدة الناشـــئة مـــن تطـــور الدراسات الفلسفية غير آبه لما ينجم عن ذلك من انهيار العقيدة ودمار القيم وضعف سلطان الوازع الديني على النفوس وأوضاع الحياة . كما يحرص هذا الفكر الغربي نفسه على أن يفصل الدين عن المجتمع وما يتصل به من نظم وأوضاع ويحصره بالأمور الروحية فحسب ، وعلى هذا فإن تفســـير الباحثين الغربيين للثقافة وتحديد علاقتها بالمجتمع من حيث كونه عنصرا من عناصر تراثه أو عاملا من عوامل التغيير فيه ، لايضع الدين حيـــث يجب أن يكون من حياة الإنسان باعتباره السلطان النازع الـــوازع الـــذي

---

[٤٢] المصدر نفسه ، ص ١٣٩.

يضمن تماسك المجتمع واستقرار نظامه والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه ، ويكون خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والتعاون المثمر الخير ، ولاينظر هذا الفكر الغربي – الذي – سيطرت عليه المادية – إلى الدين من زاوية حقيقته الأصيلة التي تقرر أنه فطرة إنسانية كما إنه ضرورة اجتماعية ، فهو الذي يؤكد الأيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية ، وليست تداني سلطانه على النفس أي سلطة أو قوة أو نظام[٤٣] .

ومن هنا نجد الثقافة الإسلامية ترتبط ارتباطا وثيقا بالدين القيّم ، ذلك أن الثقافة الحقة هي تلك التي تعبر تعبيرا حيا عن القيم الأساسية التي تعطي المجتمع ملامحه الصحيحة وتضبط حركته السديدة وترسم له وجهته الرشيدة ، فإذا انعزلت الثقافة عن القيم ووقع الفصل التام بينهما فإن نتائج ذلك إنما تنعكس على الثقافة والقيم والمجتمع معا ، فلا مناص للثقافة بسبب ذلك من الضمور ، وللقيم من الخمود ، وللمجتمع من الانحطاط ، إذ لايتصور أن تنمو الثقافة من غير رفد يغذوها أو تحيا القيم إذا لم تجد مجالها في التطبيق والواقع ، أما المجتمع فلابد أن تتفاقم مشكلاته وتشتد أزماته ويصبح عاجزا عن التحرك المجدي والإنتاج المثمر حتى تفترسه العلل وتعصف به الإحداث ويمزقه الضياع[٤٤] .

---

[٤٣] سعد محمد الشيخ المرصفي – مصدر سبق ذكره.

[٤٤] المصدر نفسه.

الثقافة في الإطار الإسلامي

الثقافة الإسلامية علم يبحث مقومات الأمة الإسلامية العامة المتعلقة بماضيها وحاضرها التي تتكون من الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ والتراث والأرض والحكم ، والحضارة وأنماط السلوك ، وأساليب الحياة المشتركة والمتنوعة . وبالمعنى الخاص إنها علم يبحث في مقومات الدين الإسلامي وآثار تلك المقومات في الماضي والحاضر ، والمصادر التي استقيت منها هذه المقومات بصورة إجمالية مركزة . وبالمعنى العام إنها علم يبحث في المتغيرات والمستجدات ، والشبهات الماضية والحاضرة التي تتعلق بمقومات الأمة الإسلامية عامة ، أو مقومات الدين الإسلامي خاصة بصورة مقنعة موجهة[٤٥] .

مما لاشك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهدا من الازدهار ، وكان لها من القوة ما يلهم الرجال جلائل الأعمال وأنواع التضحية . ولقد غيرت معالم الشعوب وخلقت دولا جديدة ثم سكنت وركدت وأصبحت كلمة جوفاء ، وها نحن اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها ، ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنية من المدنيات الأُخر وليس نتاجا بسيطا لآراء البشر وجهودهم بل هو شرع سنة الله لتعمل به الشعوب في كل زمان ومكان فإن الموقف يتبدل تماما .

---

[٤٥] المصدر نفسه.

وإذا كانت الثقافة الإسلامية في اعتقادنا نتيجة لأتباعنا شرعا مُنزلا ، فإننا حينئذ لانستطيع أبدا أن نقول – إنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية .

ثم إن ما يظهر انحلالا ليس إلاّ موتا وخلاء يحلان في قلوبنا التي بلغ من خمولها وكسلها أنها لاتستمع إلى الصوت الأزلي ، ثم ليس ثمة علامة ظاهرة تدل على أن الإنسانية مع نموها الحاضر قد استطاعت أن تشب عن الإسلام ، إنها لم تستطع أن تبني فكرة الإخاء الإنساني على أساس عملي ، كما استطاع الإسلام أن يفعل حينما أتى بفكرة القومية العليا – الأمة –[٤٦] .

إنها لم تستطع أن تشيد صرحا اجتماعيا يتضاءل التصادم والاحتكاك بين أهله فعلا على مثال ما تم في النظام الاجتماعي الإسلامي ، وإنها لم تستطع أن ترفع قدر الإنسان ولا أن تزيد في شعوره بالأمن ولا في رجائه الروحي وسعادته ، ففي جميع هذه الأمور نرى الجنس البشري في كل ما وصل إليه مقصرا كثيرا عما تضمنه المنهج الإسلامي ، فأين ما يبرر القول بان الإسلام قد ذهبت أيامه ؟

أذلك لأن أسسه دينية خاصة والاتجاه الديني زيٌّ غير شائع اليوم ؟ ولكن إذا رأينا نظاما بُني على الدين قد استطاع أن يقدم منهاجا عمليا للحياة أتم وأمتن وأصلح للمزاج النفسي في الإنسان من كل شيء آخر يمكن العقل البشري أن يأتي به عن طريق الإصلاح والاقتراح ، أفلا يكون هذا في نفسه حجة بالغة في ميدان الاستشراف الديني ؟

---

[٤٦] المصدر نفسه.

لقد تأيد الإسلام بما وصل إليه الإنسان من أنواع الإنتاج الإنساني ، لأن الإسلام كشف عنها وأشار إليها على أنها مستحبة قبل أن يصل إليها الناس بزمن طويل ، ولقد تأيد أيضا على السواء بما وقع في أثناء التطور الإنساني من قصور وإخفاء وعثرات لأنه كان قد رفع الصوت عاليا واضحا بالتحذير منها من قبل أن تتحقق البشرية أن هذه أخطاء .

وإذا صرفنا النظر عن الاعتقاد الديني نجد من وجهة نظر عقلية محض كل تشويق إلى أن نتبع الهدى الإسلامي بصورة علمية وبثقة تامة ، ونحن لانحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام – كما يظن بعض المسلمين – لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل ، أما الذي نحتاج إليه فعلا فهو أصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا وغرورنا وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة ، معالجة مساوئنا .

إن الإسلام كمؤسسة روحية واجتماعية غني عن التحسين وإن كل تغيير في مثل هذه الحال يطرأ على مدركاته وعلى تنظيمه الاجتماعي بافتئات من ثقافة أجنبية ولو بإشراق ضئيل سيكون مدعاة إلى الأسف الشديد وسترجع الخسارة حتما علينا نحن[٤٧] .

إن الخسارة لن ترجع علينا وحدنا – مع فداحة الأمر – ولكنها سترجع على البشرية كلها ، بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الفريد الباقي من هداية الله ، وتكدير أو تسميم المورد الوحيد الذي يمكن أن تستقي منه البشرية الهدى الرباني الخالص .

---

[٤٧] المصدر نفسه.

وسترجع على البشرية كلها بحرمانها هذه المثابة المستقرة في الأرض المرجوجة التي تمور بالأهواء والتي ظهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولم تعد لها منجاةٌ إلاّ في هذه المثابة الثابتة الآمنة المستقرة ، الموصولة بالله .

الحضارة في اللغة والاصطلاح

أصل المعنى اللغوي لكلمة حضارة – الإقامة في الحضر[٤٨] . وهي مفهوم واضح مقابل البداوة ، وحياة الحضر هي حياة الإنسان الذي يستعمل فكره وقدراته لترقية ذاته وأمور حياته وترقية البيئة التي يعيش فيها ولايمكن تعريفها بأحسن من ذكر مظاهرها .

ويمكن أن نقول حضارة أو تحضر بالمعنى المتقدم ، وان نقول مدنية أو تمدن بمعنى الحياة في مدينة يشيدها الإنسان ويهيئ فيها لنفسه مظاهر التحضر . واللفظ الأوربي الذي يقابل لفظ مدنية مشتق أيضا من اللفظ الذي تسمى به المدينة[٤٩] .

وإذا كان بعض المحدثين يعرف الحضارة بمعناها الواسع كما فعل الأنثروبولوجي الإنكليزي تيلور بأنها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقوانين والأعراف وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع ، فإن أبن خلدون قبل ذلك يذكر عبارة الاجتماع الإنساني ويقول – إنه عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات

---

[٤٨] ابن منظور – لسان العرب ، مادة (حضر).

[٤٩] سعد محمد الشيخ المرصفي – مصدر سبق ذكره.

وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك في العمران بطبيعته من الأحوال .

فهي بمعناها العام ، ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة ، أي ثمرة الجهود المبذولة من قبل الفكر الإنساني للاستفادة من الأجهزة الكونية المتناثرة حولنا ، وهي الجانب الآخر غير المادي في حياة المجتمع ، وهي العلم والتصورات والأفكار والسلوك والآداب وكل المعاني التي تدخل في الجانب المادي .

وقد عرفها بعضهم بأنها نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى والأمصار ويضفي على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وإدارة شؤون الحكم وترتيب وسائل الراحة وأسباب الرفاهية ، وهذا تعريف للحضارة وآثارها العامة وليس تعريفا دقيقا يحدد معناها .

ومن العلماء من عرفها بأنها كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانب نشاطه ومعانيه ، عقلا وخلقا ، الفكري والمادي ، أو باصطلاح آخر: الروحي والمادي .

وبعض الباحثين يرى أن الحضارة الحقة هي التي تطلب إلى الإنسان في مظاهر الحياة كافة أن يتذكر الله ، ويتذكر فطرته هو بحيث يستطيع أداء دور خليفة الله ، وهو الدور الذي وجد فيه على هذه الأرض ، وربما كان معناها العام أيضا طريقة الإنسان في الحياة أو مجموعة أفكاره

عنها ، وأعني بالحياة الأعمال اليومية التي يمارسها الإنسان في معيشته ، ففكرته عنها ونظرته إليها يكيف سلوكه فيها ويحدد طريقة تصرفه في أعماله .

الحضارة ، يمكن القول :- فكرة وتعبير وتأمل في المعلوم والمجهول وهي تحقيق للذات ومعنى للحياة وجواب عن سؤال متجدد أبدا – ما الحياة وما السر في أن نحيا ؟ الحضارة صوت الصمت المعبر الناطق فيما يتركه الإنسان المتحضر من آثار صامتة ناطقة ، والإنسان يفكر في ذاته ويقلق على نفسه ويسأل عن معنى حياته وموته . فالتأمل والاتجاه إلى الذات ووعي الذات هو فلسفة ، لذلك لايمكن الفصل بين الفلسفة والحضارة ، فبمجرد ما يحاول المرء أن يكتشف عن السمات المميزة للحضارة يكون قد عرف الفلسفة ذاتها ، ولايكفي أن نقول بدون الفلسفة لايمكن أن تقوم حضارة بل علينا أن نضيف أن الحضارات تختلف فيما بينها بسبب منظوراتها الفلسفية ، فالشعور بالتعجب والرغبة في الإطلاع والخروج عن الذات المعبر عنها بالفن والشعر والأدب والبناء هي فلسفة . ففي الفلسفة نتلمس عدم اليقين بالذات وعدم الوصول إلى معرفة قاطعة وهذه القيمة للفلسفة ذات جدوى حضارية . فالفلسفة إذا كانت عاجزة أن تهدينا على وجه اليقين الكامل إلى الجواب الصحيح ، فإننا نقترب بالتعبير من الجواب الصحيح . فالحضارة اقتراب ومحاولة اقتراب ومعرفة الكون والوجود وسر الحياة . لذا يمكن القول أن الفلسفة أم الحضارات ، بل إن الحضارة فلسفة ولا حضارة بدون فلسفة ، بدون

رؤية . وتعدد الرؤى مساهمة إنسانية مشتركة لإعطاء معنى وصور للحياة والعالم ، وفي ذلك إغناء للإنسان والإنسانية[٥٠] .

الحضارة من كل ما تقدم ، هي العطاء الكلي لإنجاز المجتمع المتمثل في الجانب المعنوي الذي يمثل القيم والأهداف والعادات والتقاليد فضلا عن الحصيلة الفكرية من أدب وعلم وفن وفلسفة ودين وغير ذلك ، وفي الجانب المادي الذي يمثل الأدوات ووسائل العمل والأبنية والهياكل والجسور والقنوات والسدود وغير ذلك . وليست الحضارة ساكنة لاتتغير بل إن أبرز صفة في الحضارة المستمرة هي الاتصال بحضارات أخرى سواء كان الاتصال بالطرق السلمية عن طريق النقل والتفاعل والاحتكاك أو بالطرق الحربية عن طريق الغزو والاستيطان .

إن مقياس تقدم الحضارة هو قدرتها على الإنجاز والابتكار والأصالة والعطاء وتأثيرها المستمر على الحضارات الأخرى ، وإن مقياس قوة الحضارة وشدة زخمها هو قدرتها على تمثيل الحضارات أو الثقافات الداخلة فيها سواء كانت وسيلة الدخول فيها عن طريق احتضانها بالحرب أو بالسلم .

ولابد لنا أن نميز كذلك بين أنواع الحضارات ، بين حضارة اندثرت ولم يبق منها غير الآثار والأطلال وبعض الأدوات والأسلحة مع بعض النصوص الكتابية التي تشهد على الثقافة فيها ، وبين حضارة انقطع تأثيرها من الزمن ثم ما لبثت أن عادت إلى الحياة من جديد ، وبين

---

[٥٠] منذر الشاوي – الحضارة موقف وحوار ، جريدة القادسية (بغداد) ، العدد الصادر يوم ٢٤ / ١٢ / ١٩٩٦.

حضارة مستمرة لم تنقطع بل أصابها الجمود في بعض مراحل التاريخ ثم استعادت نشاطها من جديد في الأخذ والعطاء . فالحضارة البابلية والسومرية من الأمثلة على النوع الأول ، والحضارة اليونانية بالنسبة لأوربا والحضارة العبرية من الأمثلة على النوع الثاني ، والحضارة العربية الإسلامية من الأمثلة على النوع الثالث .

وإذا استمرت الحضارة بالنمو والتطور من دون أن يصيبها التدهور وتحل فيها عوامل الانهيار فإنها تميل من دون أدنى شك إلى أن تصبح مدنية ، وذلك نتيجة تعقد الحياة وتطور الأساس الاقتصادي واستحداث أدوات إنتاجية جديدة ، ونشاط الحركة التجارية وظهور المدن الكبيرة .

ومن المفيد أن نشير إلى كلمة المدنية التي هي البناء العام لإنجاز المجتمع بعد اجتيازه سلسلة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والصناعية والسياسية حيث تتميز بتطور صناعي وتكنولوجي وعلاقات إنتاجية جديدة قائمة على أساس طبقي وذات نظام سياسي يقوم على المركزية والسلطة وتوزيع العمل والمسؤولية والتخصص .

إن أساس الاختلاف بين الحضارة والمدنية هو سيادة الوحدة في الروابط والمشاعر والتجاذب الروحي بين أفراد المجتمع وسيادة التقنيات والعلم والصناعة والمركزية والسلطة في المجتمع المدني مع ضعف واضح في الروابط والمشاعر والروح العامة نتيجة لاهتمامات الفرد بالعوامل المادية ، ولكن ذلك لايعني مطلقا أن المجتمعات المدنية خالية من الحضارة والمظاهر الحضارية . فالمدنية تحتفظ بمظاهر حضارية متعددة ، وإن شيوع ظاهرة التحضر والتحولات السريعة في حياة الفرد

والمجتمع قد خلق أنماطا جديدة من السلوك والقيم والمواقف والعادات ، كما أضافت الإبداعات الفنية والأدبية والاتجاهات الفلسفية والحركات الدينية والثورية اشكالات جديدة من الثقافات ، كما أدت اكتشافات الإنسان لحقائق الكون والإنسان ، واستحداث الأجهزة العلمية المعقدة وزيادة المعرفة بكثير من القوانين ذات الصلة بالظواهر الطبيعية والحياتية إلى نشوء نظرة جديدة شاملة للكون اعتمدت نتائج العلوم والخيال العلمي والفلسفي مع طموح الإنسان إلى فهم مصيره ومصير الكون . فإذا بشكل جديد من أشكال الحضارة امتداد لحضارات سابقة من جهة ومظهر جديد متداخل في البناء العام للمدنية من جهة أخرى أتسم بخصائص العصر الآلية وصفات الحياة الاجتماعية الجديدة .

نستنتج مما تقدم عدة حقائق قائمة على ضرورة التمييز بين الثقافة والحضارة المدنية منها :- إن الثقافة تمثل الجانب الفكري ، العلمي والإنساني ، وإن درجة اختلافها وتنوعها مرتبطة بالتطور الحضاري وتقدم الحضارة وقوتها ، وإن الحضارة لاتقتصر على الجوانب الفكرية فحسب بل تتجاوز ذلك إلى جميع الأوجه التي تعبر عن حيوية الإنسان في تحويل معتقداته وأفكاره ومواقفه من الكون والإنسان والمجتمع إلى ممارسات عملية يشترك فيها أفراد المجتمع فتخلق عندهم مواقف موحدة وشعورا مشتركا وتجاذبا روحيا ، وإن المدنية لاتخلو من مظاهر حضارية بل تشير إلى نمط حضاري جديد تسود فيه قيم وأهداف المجتمع الآني وما يرتبط بالتقدم التكنولوجي من تغييرات سريعة في حياة الإنسان تدفعه من جديد إلى البحث عن ذاته وعن مصيره ومصير غيره والإنسانية والكون .

نرى من كل ما تقدم . . . أن معنى الحضارة قائم عند المفكرين لكنهم يختلفون في توسيع معناه أو في ضيقه ، وبعبارة أخرى هو غائم عند بعضهم غير محدد ، فمنهم من جعله يشمل الأفكار والعقائد وما ينتج عنها من نتائج مادية .

الحضارة والمدنية

لمزيد من تحديد معنى الحضارة يجب الوقوف عند بعض المفاهيم التي تقترب منها وتتداخل معها ، وأولها مفهوم المدنية ، وعلى تحديدها يمكن أن نقترب أكثر من إدراك فكرة الحضارة . وإذا كانت اللغة تعبيرا عن واقع وأحاسيس وتصورات إنسانية فإنها يمكن أن تسعف في تحديد معني بعض المصطلحات أو المفاهيم . إلاّ أنها في بعض الأحيان لاتسعف إذا كانت المفاهيم حديثة العهد فيتوجب عندها تحديد المعنى الاصطلاحي لهذه المفاهيم . ومن هذا المنطلق نقول إن لكل شعب بل لكل إنسان طريقة في الحياة أي طريقة في العيش ، فعلاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالأشياء تفرض عليه أن يحدد موقفا أو سلوكا من هذا وذاك وبالتالي أن يحدد أسلوبه في الحياة ولكن هل الأسلوب في الحياة أي طريقة الحياة ، هي حضارة ؟

إن الحضارة لاتبدأ إلاّ حين يحدد الإنسان موقفا من الكون والحياة والمنشأ والمصير وبالتالي يعبر عن هذا الموقف بشتي أنواع التعابير ، إلاّ أن العيش في المدينة يفرض على الإنسان أسلوبا معينا في الحياة ، وقد يكون لهذا الأسلوب تأثير في تحديد موقفه من العالم والحياة والكون ، فتنشأ حضارة المدنية . ومن هنا نشأت الكلمة الأجنبية Civilisation التي تجد

في اللغة العربية من حَضَر . أما المدنية فهي من مَدن ، أي أتى إلى المدينة وأقام فيها وتخلق بأخلاق المدن وعوائد أهلها . لذلك فليس هناك ارتباط أساس بين الحضارة والمدنية بحيث أن الحضارة بالمعنى الذي حددناه يمكن أن تكون في البداوة وبالتالي يمكن أن تكون هناك حضارة بدوية ، كذلك يجب الوقوف عند كلمة أو مصطلح الثقافة .

وأساس الثقافة هو التعلم لكن قد يكون الإنسان متعلما إلاّ أنه غير مثقف ، فالثقافة هي وعي الإبداع الإنساني في شتى المجالات . فالثقافة وإن كان أساسها التعليم فإن كل متعلم ليس مثقفا إلاّ أن كل مثقف هو متعلم على الأقل في الحضارات الحديثة . لكن السؤال الذي يطرح هو هل إن الثقافة والسلوك متلازمان ؟

إن الأمر يجب أن يكون كذلك طالما أن الثقافة هي إدراك الجميل والمبدع ، فالثقافة رؤية في الداخل وفي الخارج ومحاكاة النفس الدائمة في انسجامها مع الذات والذوات الأخر . وإذا كانت الحضارة موقف الإنسان من الحياة والكون وهي إضفاء شكل على المفردات الحياتية وأسلوب ورؤية ، فالإنسان يسهم إذن في بناء الحضارة ومدى إسهامه يتوقف على مدى وعيه وثقافته . بهذا المعنى تكون الحضارة عملا أو إنجازا جماعيا أسهمت النخبة في بنائها من دون شك . فالحضارة منجز مادي ومعنوي والإنسان المثقف يعي ويسهم في الحضارة بحيث أن من ينتمي إلى حضارة يجب أن يدرك قيمها وأبعادها .

بناء عليه ، يمكن القول أن قطبي أو طرفي المعادلة الإنسانية هما المدنية والحضارة وبينهما تقع الثقافة . فالمدنية تتعلق بالسلوك والتصرف في المدينة وقد يكون المتمدن هو المثقف الواعي لذاته وذات الآخرين ، إلاّ أن المتحضر هو الواعي لقيم وأسلوب التصرف والتفكير التي تفرضها رؤية معينة للحياة ، بناء عليه قد يبقى الإنسان متمدنا من دون أن يكون مثقفا ، وقد يكون متمدنا ومثقفا من دون أن يكون متحضرا . فالمدنية هي غير الحضارة والحضارة هي غير المدنية . فالحضارة يمكن أن تكون حضارة غير مدنية كما يمكن أن تكون حضارة مدنية وهي في الأغلب كذلك . وبالنظر للتقدم المادي والتقني في الأزمنة المعاصرة ، فأنه من الضروري التركيز بل الإلحاح على التمييز بين المدنية والحضارة . وإذا كانت الحضارة تمثل الأفكار والمفاهيم التي يحملها الإنسان عنه وعن الكون والحياة التي تبنى عليها حياته في كل مجالاتها ، فهذا يعني أن الحضارة هي ما نحن ، أما المدنية فهي ما نستعمل ، لذا يمكن القول أن المدنية هي ذات طبيعة عقلية عامة لاتحدد بصفة محلية بل تعبر المكان والزمان .

بناء عليه فإن الثورة التقنية هي من المدينة وليست من الحضارة ما لم تتوفر في المدنية متطلبات الحضارة . والحضارة تدرك بأثرها ، فهي عمل جماعي وأثرها نتيجة لهذا العمل الجماعي الذي يكون للنخبة الفكرية الدور الأساس فيه . ولذلك فإن الحضارة لاتنسب إلى فرد ، وإن ما ينسب إلى الفرد هو المدنية ، فالحضارة بناء إنساني لاصفة لإنسان . صحيح أن الحضارة انعكاس لتصورات ومعتقدات وإرهاصات شعب أو أمة لكن من يعبر عن كل ذلك هم نخبة الأفراد وهم بناة الحضارة .

النطاق اللغوي لدلالة الثقافة والحضارة

يعمد بعض الباحثين إلى إيجاد فواصل بين مدلول كلمتي ثقافة وحضارة بحيث يجعل الأولى خاصة بالأمور المعنوية والثانية بالأمور المادية . وقد يكون لهذا ما يبرره من حيث اللغة ، غير أن الإلحاح على مثل هذه الفواصل في مدلول كل من الكلمتين إنما يعود من حيث الأصل إلى ما يحيط بهما من لبس وغموض في النطاق اللغوي ، وجاءت الاستعمالات الدارجة لهما عاملا بزيد في هذه التفرقة ويعمق هذه الفواصل .

وإذا كانت الثقافة بوجه عام هي العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق بها – كما أسلفنا – فإن العلوم تكثر كما يقول ابن خلدون ، حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، والسبب في ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع والصنائع إنما تكثر في الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة ، لأنه أمر زائد على المعاش ، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع ، ومن تشوف بفطرته إلى العلم مما نشأ في القرى والأمصار غير المتمدنة فلايجد فيها التعليم الذي هو صناعي لفقدان الصنائع في أهل البدو ، ولابد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار المستبحرة شأن الصنائع كلها .

وإذا كانت الحضارة تطلق الآن اصطلاحا على كل ما ينشئه الإنسان في كل ما يتصل بمختلف جوانبه ونواحيه ، عقلا وخلقا ، مادةً وروحا ، دينا ودنيا ، فهي في إطلاقها وعمومها قصة الإنسان في كل ما

أنجزه على اختلاف العصور وتقلب الأزمان وما صورت به علائقه بالكون وما وراءه – وهي في تخصيصها بجماعة عن الجماعات أو أمة من الأمم – تراث هذه الأمة أو الجماعة على وجه الخصوص الذي يميزها عن غيرها من الجماعات والأمم . وهي بهذا المعنى الاصطلاحي نظير المدنية التي هي في أصل الاستعمال سكنى المدن والتي تقابل الكلمة الإنكليزية Civilization والفرنسية Civilisation . والحضارة بهذا المعنى أعم من الثقافة التي تطلق على الجانب الروحي أو الفكري من الحضارة في حين تشمل الحضارة الجانبين – الروحي والمادي ، أو الفكري والصناعي ، وكأنما لوحظ فيها أن النشاط البشري في مختلف جوانبه ومواهبه يكون في أرقى حالاته في الحواضر والمدن .

ولقد أسقط كثير من الباحثين من ناحية أخرى هذا الخط النظري الفاصل بين الحضارة والثقافة في معرض الكلام عن إحداهما من حيث الدراسة التطبيقية الهادفة لا الدراسة النظرية في المصطلحات ، وقد جاءت هذه الأوصاف التي أطلقت على الحضارة لديهم صالحة لأن تطلق كذلك على الثقافة .

وفي ضوء الربط الوثيق بين الثقافة والحضارة يقول مالك بن نبي :– . . . فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته[٥١] .

---

[٥١] مالك بني نبي – شروط النهضة ، ترجمة – كامل مسقاي وعبد الصبور شاهين ، ط ٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠.

وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها ، فهو المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر . وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة ، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد ، تُحدِثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذِّن فجر إحدى الحضارات ، ولكن لاسبيل لعودة الثقافة إلى وظيفتها الحضارية إلاّ بعد تنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف الذي أحدثه عدم فهمنا لمفهوم ثقافة .

والحضارة الإنسانية تلك التي في صدد التوجيه واحتواء الحضارة الصالحة الخيرة للجانب الثقافي هي:- مجموع المعارف العلمية والتشريعات والنظم والعادات والآداب التي تمثل الحالة الفكرية والاقتصادية والخلقية والسياسية والفنية وسائر مظاهر الحياة المادية والمعنوية في مرحلة من مراحل التاريخ وفي بقعة من بقاع الأرض سواء شملت شعبا أم أكثر .

لا شك في أن المناقشة التي دارت حول الثقافة والحضارة آلت الى تشتت الأفكار في الغرب خلال الثلاثين سنة الأولى من القرن العشرين ، بقي خلالها الاستخدام الفرنسي لكلمة حضارة Civilisation يشمل مختلف ابعاد التقدم ، فكرية أكانت أم مادية ، مقابل النزعة الالمانية التي نحت نحو التمييز بين الثقافة بمعناها الروحي والفكري والعلمي وبين الحضارة بمعناها المادي .

وقد فرق ألفريد فيبر بين الحضارة و الثقافة ، على أنها جملة المعارف النظرية والتطبيقية غير الشخصية وبالتالي تلك التي يعترف انسانيا بصلاحياتها ويمكن تناقلها، وبين الثقافة ، على أنها جملة من العناصر الروحية والمشاعر والمثل المشتركة التي ترتبط في خصوصيتها بمجموعة وزمن معينيين .

على العموم ، لم يمر علماء الانثروبولوجيا والاجتماع أي اهتمام لهذا التمييز الذي بدأ لهم تمييزا وهميا وموصوما بصورة خاصة بثنائية غامضة مستوحاة من المعارضة الخاطئة بين الروح والمادة ، بين الاحساس والعقلنة ، بين الأفكار والأشياء . أن الغالبية العظمى من علماء الاجتماع والانثروبولوجيات تتجنب استعمال مصطلح حضارة أو تستخدم مصطلح ثقافة بمعنى حضارة ، وتعتبر الاثنتين ثقافة وحضارة من الممكن ان تحل أحداهما محل الأخرى . وهكذا فان الاثنولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس يتحدث عن الحضارات البدائية متبعا في ذلك مثل تيلور الذي على الرغم من اعطائه أحيانا للأصطلاحين معاني مختلفة ، الا أنه كان يستعمل التعريف الواحد نفسه للثقافة والحضارة .

ومع ذلك قد نجد عند بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرين التمييز الآتي :- فبعضهم يستخدم مصطلح حضارة لكي يشير الى مجموعة من الثقافات الخاصة التي بينها تتشابه أو أصول مشتركة ، وبهذا المعنى يتحدث بعضهم عن الحضارة الغربية التي تنضوي تحتها الثقافات الفرنسية والأنكليزية والألمانية والايطالية والأمريكية . . . . أو حين يتحدث بعضهم عن الحضارة الأمريكية والتي انتشر نمط الحياة بها

في ثقافات الشعوب الأخرى . وكذلك حين الحديث عن الحضارة العربية في أطارها ثقافة عراقية ومصرية ولبنانية ومغاربية . . . وهكذا نرى ان مفهوم الثقافة يرتبط وفق هذا الاستعمال بمجتمع معين ومحدد الهوية ، في حين ان مصطلح حضارة يستخدم ليشير الى مجموعات أكثر اتساعا وأكثر شمولا في المكان والزمان .

أما بعضهم الآخر فيستخدم مصطلح حضارة للدلالة على المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التطور ، وتتصف بالتقدم العلمي والتقني والتنظيم المدني والتعقيد في التنظيم الاجتماعي ، وهذا الاستعمال يعود بنا الى أصل الكلمة بمعنى حضر أو تحضر في مواجهة البداوة والترحل . وهكذا يؤدي هذا الاستخدام الى مفهوم تطوري وهو يتضمن بالوقت نفسه شحنة من الأحكام التقويمية التي حملها معه مفهوم الحضارة فترة زمنية طويلة . لذلك نلجأ في العلوم الاجتماعية الآن الى تعبيرات مثل: التصنيع والنمو والتحديث والثقافة . وعليه فأن هذا الأتجاه يفيد ان كل حضارة ثقافة بمعنى ما . ولكن ليست محل كل ثقافة حضارة .

إن غاية الحضارة الارتفاع بالحياة الإنسانية ، والحياة الإنسانية معقدة كثيرة الجوانب . فإن فيها حياة فكرية عقلية وحياة مادية عملية معاشية وحياة نفسية خلقية وحياة اجتماعية إلى جانب الحياة الفردية . والحضارة الصالحة الخيرة هي التي ترتفع بهذه الجوانب كلها وتعدل بينها ، فلا يظلم جانب منها جانبا آخر ولاينمو واحد ويضمر آخر . ولايأتي هذا إلاّ في ظل الحضارة الإسلامية .

ورأينا كلمة Culture تستعمل حديثا في الدلالة على الجانب الروحي والمعنوي من الحضارة . وكلمة Civilization تستعمل دالة على الجانب المادي ، لكن من غير توسيع الهوة بين الناحيتين ، لأن كل مظاهر الحضارة المادية ووسائلها وأدواتها ترتكز على مقومات وتصورات عقلية وعلى معارف نظرية مجردة .

وكما جرى الاستعمال لكلمة ثقافة وتثقيف في اللغة العربية حديثا للدلالة على جملة التراث الإنساني وعلى تكوين الإنسان الناشئ وتنمية مواهبه بعناصر المعرفة النظرية والعملية التي يحتاج إليها ، فكذلك جرى استعمال كلمة Culture في الدلالة على جملة الحضارة ، وعلى ترقية ملكات الإنسان والسمو بها عن طريق التربية والتدريب .

وصارت دراسة ثقافة الأمة من حيث أصول هذه الثقافة وعناصرها الرئيسة وتطورها وارتقاؤها ومكانها بين الثقافات الأخرى من أهم الدراسات العلمية ، كما صارت تكوين أفراد المجتمع على أحسن نموذج يجمع بين التقدير لتراث الماضي والإدراك لمقتضيات الحاضر وتطويره لتحقيق آمال المستقبل أهم واجب تنهض به الجماعة ممثلة في هيئاتها ومعاهدها الثقافية ، وذلك لأن كل أمة لها ثقافتها التي هي عنوان عبقريتها وثمرة اجتهادها ، وهي المعبرة عن روحها وشخصيتها والعلامة الكبرى المميزة لها بين الأمم ، والدالة على الدور الذي لعبته وعلى النصيب الذي أسهمت به في تاريخ الحضارة الإنسانية .

والمادة ليست محتقرة في المجتمع الإسلامي ، لا في صورة النظرية باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونؤثر

فيه أيضا ، ولا في صورة الإنتاج المادي . فالإنتاج المادي من مقومات الحياة ولكنه فقط لايعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته ، وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته ، وتهدر فيها قاعدة الأسرة ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته . إلى آخر ما تهدره المجتمعات التي طغت عليها المادة من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقيق الوفرة في الإنتاج المادي .

وحين تكون القيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية التي تقوم عليها هي السائدة في مجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضرا ، والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة وليست كذلك قيما متطورة متغيرة متبدلة ، لاتستقر على حال ولاترجع إلى الأصل ، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ ، وكما تزعم الاشتراكية العلمية .

إنها القيم والأخلاق التي تُنمي في الإنسان الخصائص التي يتفرد بها دون الحيوان ، والتي تغلِّبُ فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزوه عن الحيوان ، وليست هي تلك الخصائص التي تُنمي فيه وتغلِّب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم وثابت لايقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها التطوريون والاشتراكيون العلميون .

والإسلام لايحتقر الإبداع المادي إنما يجعل هذا اللون من التقدم – في ظل منهج الله – نعمة من نعم الله على عباده يبشرهم به جزاءا على طاعته ، يقول الله تعالى :– ((فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يُرسل

السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارا / نوح)) . ((ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض / الأعراف)) .

هذه البركات ألوان شتى ، وأطياف شتى . تصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلاتحديد ولاتفصيل ولابيان ، والذين يتصورون الأيمان بالله مسألة تعبدية بحتة لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لايعرفون الأيمان ولايعرفون الحياة في رحاب الأيمان ، وما أحراهم أن يستقرئوا التاريخ يوم كان أسلافنا مؤمنين حقا ، فقد دانت لهم الدنيا وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض .

وحكاية أن الثقافة تراث إنساني لاوطن له ولاجنس ولادين ، هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية من دون أن تجاوز هذه المنطقة إلى التفسيرات الفلسفية الميتافيزيقية لنتائج هذه العلوم ولا إلى التفسيرات الفلسفية لنفس الإنسان ونشاطه وتاريخه ولا إلى الفن والأدب والتعبيرات الشعورية جميعا . ولكنها وفيما وراء ذلك أحدى المصائد التي يهمها تمييع الحواجز كلها بما في ذلك بل في أول ذلك ، حواجز العقيدة والتصور .

والإسلام يعتبر فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية نوعين من الثقافة:- الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي ، والثقافة المادية البحتة القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قاعدة واحدة ، قاعدة إقامة الفكر البشري إلها لايرجع إلى الله في ميزانه .

والثقافة الإسلامية شاملة لكل حقول النشـــاط الفكـــري والـــواقعي الإنساني وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما[٥٢] .

الشخصية الحضارية

إن الظروف التي واجهتها الفئات الاجتماعية ثـم القبائـل ليسـت متماثلة قطعا ، وإن نشأة هذه الفئات والشعوب حددتها ظروف كثيرة أثرت بدون شك في نشأة لغاتها وعاداتها وتقاليدها عبر آلاف السنين ، ومن هنا ظهرت حضارات متنوعة وكل حضارة تحمل طابعهـا عقيـدة وتاريخـا وعادات وتقاليد واستجابات جابهتها من خلال مسـيرتها عبـر الزمـان والمكان . لذلك فإن لكل حضارة شخصيتها المميـزة وهـذه الشخصـية المميزة تظهر في مجموعة المفاهيم والرؤى للأمة أو الشعب حيال الكـون والحياة والإنسان . وللعقيدة أو الأيمان دور مهم في بناء الحضارة ، إلاّ أن علم النفس يرى أن قدرة الميل الفردي والجمعي عند أبناء مجتمـع واحـد لاتحدد وحدها صفة الحضارة لأن القدرة كمية غير متجهة ، لذا فإن أثـر التربية والإرشاد والتوجيه والظروف البيئية المحيطة هي التي ترسم اتجاه كتلة التفكير .

بناء عليه فإن هنـاك حضـارات مختلفـة الصـيغة ، حضـارة عسكرية ، حضارة قانونية ، حضارة اقتصـادية ، حضـارة سياسـية ، حضارة دينية . فالبلد المحاط بالأعداء ومطلوب الاحـتلال يـؤدي إلـى

---

[٥٢] سعد محمد الشيخ المرصفي – مصدر سبق ذكره .

ضرورة قيام حضارة عسكرية لمواجهة الخطر . وبلد فقير محدود الموارد يؤدي إلى ضرورة قيام تفكير اقتصادي وحضارة اقتصادية . كما إن ثقافة البحر هي غير ثقافة الصحراء وثقافة الجبل هي غير ثقافة المستنقعات . ومن هنا قيل تدخل الجغرافية صانعا للاختلاف الحضاري . فالجغرافية تشترك في صنع التاريخ ولكن دور التاريخ في صنع الجغرافية دور ضئيل لايستحق الذكر .

ونعتقد أن هذه الرؤية غير نافذة ، لأن الحضارة لاتتميز بصفة واحدة ، بمعنى أن المزية أو الصفة الواحدة لاتستبعد الصفات الحضارية الأخرى ، فالشخصية الحضارية هي شخصية متكاملة تشمل بل تشع على كل أجزاء الجسم الحضاري إن صح التعبير ، لذلك لايمكن القول أن حضارة ما هي عسكرية أو اقتصادية أو قانونية فقط . وعلى سبيل المثال فإن حضارة الرومان كانت حضارة عسكرية كما كانت حضارة إدارة وحضارة قانون وحضارة أدب وعمارة . والحال كذلك بالنسبة لحضارات أخرى . فالصفة الواحدة للحضارة لا تستبعد الصفات الأخرى . وإذا لم توجد صفات أخرى حضارية مكتملة ، فلسنا أذن بصدد حضارة وبالتالي فإن من التعسف القول بأن هناك حضارة واحدة الصفة . ويصح هذا القول على المدنية وليس على الحضارة . فيمكن أن توجد مدنية تقنيات وليست حضارة تقنيات . أما القول بأن الجغرافية تصنع أو تشترك في صنع التاريخ فهو قول مبالغ فيه وأحادي النظرة . نعم إن الجغرافية تلعب دورا في البناء الحضاري إلاّ أنها لا تتحكم في نوعية الحضارة حتما . وإذا كان الأمر غير ذلك فكيف نفسر أن ثقافة أو حضارة العرب الصحراوية أدت

في أقل من قرن إلى بناء حضارة فريدة . فالجغرافية لها دور في صنع التاريخ لا يتناسب مع دور النخبة في صنعه . فالتاريخ وتاريخ الحضارات بالذات ، الذي تصنعه النخبة يعني أن الإنسان أساس الحضارة وبانيها وهو يتفاعل مع بيئة ولكن لا يكون عبدا لها . وإذا كان الأمر كذلك ، فالحضارات الجغرافية ليست حضارات بقدر ما هي مدنيات جغرافية إن صح التعبير[٥٣] .

حوار الحضارات

إن الشعوب والأمم التي تقيم الحضارات لا تقيمها بمعزل عن الحضارات الأخرى . فالحضارة بناء إنساني والإنسانية واحدة ، لذا فإن الحضارات سلسلة متواصلة من الجهد الإنساني لإدراك معنى الحياة والكون ، وهي وإن اختلفت لظروف مادية أو معنوية تعرض لها شعب معين فإنها استندت في الأصل إلى حضارة أو حضارات سبقتها . فالحضارة لا تأتي من الفراغ وإنما هي تكامل إنساني . لذلك فإن الحضارة الإنسانية هي حلقات متواصلة واقتباسات مستمرة وزيادات إرادية وغير إرادية ، بحيث كتب كل شعب بنى حضارة صفحة أو صفحات في سجل الحضارة الإنسانية . ورغم ذلك فقد تعددت المسارات الحضارية عبر الزمان والمكان . لأن كل حضارة وإن اقتبست من حضارة أو حضارات أخرى فإنها تضفي على بنائها الحضاري روح وشخصية الشعب الذي أقامها . وتعدد المسارات الحضارية عبر المكان يطرح مسألة في غاية

---

[٥٣] منذر الشاوي ، مصدر سبق ذكره.

الأهمية ، ألا وهي ضرورة حوار الحضارة مع الحضـــارات الأخـــرى . فالإنسان واحد والإنسانية واحدة ، وقد تختلف الرؤى الحضارية ولكن تبقى هذه الوحدة ، لذلك في الحوار نفهم الغير/الآخر ومن خلال فهم الغير نفهم ذاتنا . ففي كل حضارة رؤى ومفاهيم قد يغتني بها الآخر كما يغني هـذا بعطائه الغير ، فالحوار الحضاري عمل إنساني بـل ضـرورة إنســانية تفرضها وحدة الإنسانية ووحدة المصير الإنساني . لذا فإن التفاعـل بـين الحضارات هو في مصلحة الإنسان والإنسانية ، وبالتالي فـإن التكامـل الحضاري ضرورة إنسانية . لكن كيف نفهم هـذا التفاعـل أو التكامـل الحضاري . وبقدر تعلق الأمر بحضارتنا العربية الإسلامية فإن المـنهج الصحيح يقضي أن نعرف ونفهم معطيات وأبعاد هذه الحضارة . أن نعرف حضارتنا السالفة في جوهرها في ذاتها لا أن نعرفها من خلال تضادها أو في مواجهة الحضارة الأخرى ، الحضارة الغربية . صحيح أن الحضـــارة الغربية هي الطاغية اليوم وخطرهـــا محـــدق وتأثيرهـــا أكبـــر ، إلاّ أن ذلك لايمنعنا من النظر في ذاتنا قبل المواجهة الحضـــارية مـــع الغيـــر . ولكن كيف ؟

إن المسلمين لو عادوا إلى أنفسهم وفهمـــوا مـــذهبيتهم الإســـلامية الحضارية المحددة الواضحة في مسلماتها وقيمها وغاياتها ووسائلها فـــي ظل المرحلة الحضارية التي تمر بعالمنا المعاصر لاستطاعوا أن يخـــدموا أنفسهم ويفيدوا غيرهم من أجل إنقاذ الحضارة من المادية المتوغلة ، والقيام بدور عالمي لإنقاذ البشرية . ولانرى في هذا الطـــرح حـــوارا وتفـــاعلا حضاريا بل عملية إنقاذ أو رسالة إنقاذ للحضارة المادية الغربية . إلاّ أنـــه

ليس من الدقة بمكان أن نوسم الحضارة الغربيـــة بالماديـــة ، فالجوانـــب الروحية والأخلاقية موجودة . كما يجب التمييز بين الحضـــارة الأوربيـــة والمدنية الأمريكية المادية . صحيح أن الإنسان واحد في الغرب والشـــرق وأن حضارة ما يمكن أو يجب أن تمتد إليه ، لكن ليس من موقـــف يتســـم بالمقاومة للحضارة الغربية . فالحوار الحضاري لايكون بالرفض ونعـــت الغير بالمادية ، علينا وفق مقتضيات المنهج الصحيح ، أن نتفهمها لأنهـــا رغم كل ما قيل تحمل جذور حضـــارة إنســـانية عريقـــة – اليونانيـــة / الرومانية – لذا فإن فهم الغير يساعد على فهم الذات والأنا ، أما رفـــض الآخر فيؤدي إلى أن نجمد الذات دون نعرفها .

قد يقال أن التفاعل إسلاميا وإنسانيا ضـــروري ، لأن الغـــرب يفقـــد الغايات ونحن نفقد الوسائل . فتبادل ما عند الآخر لابد أن يوصل البشرية إلى حالة تكاملية متوازنة ، وعليه فإن الحوار الحضاري ســـيكون علـــى النحو التالي : – من عندنا الروح ، أي الشحنة الإيمانية والروحية ومـــنكم العلم والتقنية ، منكم الوسائل ومنا الغايات . لكن كيـــف تمتـــزج الطاقـــة الروحية والطاقة المادية في حضارتين لتنجب حضـــارة واحـــدة إنســـانية روحية عقلانية علمية متكاملة . وهذا البعد العـــالمي للحضـــارة العربيـــة الإسلامية ولإسعاد الإنسانية ليس إلاّ نظرة أمل تهمل الواقع في شـــطريها الغربي والشرقي تقول غير ذلك . فقـــد قـــال الإمـــام محمـــد عبـــده :– " فوجدت الإسلام في أوربة ولم أجد المسلمين وأجد المسلمين في عالمنـــا ولا أجد الإسلام" .

بناءا عليه ، فالمنهج العلمي يقضي بأن لانرفض الآخر وأن لانمجد الذات من دون أن نعرفها ونعرف واقعها . حوار الحضارات ضروري إلاّ أن الحوار يتضمن أو يفترض التعاطف لا الرفض والاستنكار ، وإلاّ وقعنا في خلل منهجي أكيد ، وإذا كانت الحضارة بناءً إنسانيا فلا يمكن تصور وجود صراع حضاري أو صراع بين الحضارات . فالصراع بين الشعوب هو صراع البربرية لا صراع الحضارة . أما الحضارات فبينها حوار وبينها تكامل لا صراع . وإذا كانت هناك شعوب تريد السيطرة على شعوب أخرى ، فالشعب الذي يبغي السيطرة حتى إذا كان متمكنا علميا (وتكنيكيا) هو شعب متمدن في أحسن الأحوال ، فالصراع يمكن أن يكون بين شعوب متمدنة أو بين شعوب متمدنة ومتحضرة لكن لا صراع بين الحضارات . وقد يكون الصراع ماديا وعند ذاك نكون أمام البربرية لا الحضارة . وقد يكون الصراع دفاعا عن النفس وعندها نكون أمام البربرية ضد الحضارة . وقد يكون الصراع في النظرة والتقييم إلى الحضارات الأخرى ، وهذا ليس صراعا دائما محاولة فهم الحضارات الأخرى وبالتالي فإن المسألة قيم ومعتقدات لها قواعدها التي تحكمها في النشأة والتكوين[٥٤] .

كيف نفهم سقوط الحضارة ؟

الحضارة بوصفها بناءً إنسانيا هل تتعرض إلى الهرم والسقوط ، وهل يمكن الكلام عن أفول أو سقوط الحضارة ؟

---

[٥٤] المصدر نفسه.

تعتقد المدرسة السلوكية النفسية أن أية حضارة هي مجمع عادات وكل عادة يحكمها زمن عندما يتقدم الزمن تشيخ العادة فتهدم الحضارة ويعاب على هذا الرأي أن الحضارة هي أعقد وأكبر من أن تكون مجمع عادات ، فالحضارة هي الحياة بالشكل الذي يريده أو يتصوره الأنسان ، وهذه الرؤية قد تعقبها عادات معينة ، لكن العادات ولو بمجموعها ليست الحضارة ، إلاّ أن السؤال الذي يجب الوقوف عنده والتأمل طويلا فيه هو :- هل الحضارة تحمل مقتلها ؟

لقد قدم غوستاف لوبون تفسيرا لأفول الحضارة يمكن أن يندرج في هذا الاتجاه ، فهو يرى أن كل الحضارات السابقة خصصت لنفس الآلية في انحلالها . . وهي أن الحضارة حين تصل إلى درجة من القوة بحيث تثق من أن لا خطر عليها من جيرانها ، يبدأ الشعب بالتمتع بخيرات السلام والثروة وعندها تفقد الفضيلة العسكرية . والأوج الحضاري يخلق حاجات جديدة فتتطور الأنانية . وعند ذاك يجتاح الجيران البربر أو نصف البربر الذين لهم حاجات محدودة ومُثل قوية ، الشعب المتحضر . وهكذا كان حال روما .

وليس الذكاء هو الذي افتقده الشعب المجتاح لكن العزم ، فالرومان القدماء كانت لهم حاجات محدودة ومثل أعلى قوي جدا . وهذا المثل الأعلى – عظمة روما – كان يسيطر على النفوس وكان كل مواطن مستعدا لأن يضحي بعائلته وثروته وحياته من أجله ، إلاّ أن هذا التحليل يضعنا أمام ما يمكن أن نسميه معضلة أو حيرة الحضارة ، كلما تقدمت الحضارة وتحضر البشر كلما قرب أو أذن سقوط الحضارة . بعبارة أخرى

عندما تقدم حضارة ما رخاءا وترفا ماديا وفكريا إلى أجيالها فإن هذه الأجيال تميل إلى الكسل والاسترخاء وفقد الحماس للاستمرار في البناء والدفاع فتتدهور الحضارة . إلاّ أن هذا القانون أو هذه المفارقة الحضارية يجب أن لا تؤخذ بهذه البساطة . فالحضارة بناء إنساني وفكري يصل بالإنسان إلى مرحلة متقدمة من الإنسانية بحيث توسع الآفاق وتفلسف الحياة وتزيد النظرة النسبية وتقلل من المطلق والتعصبات الفكرية . والبناء الفكري والفني يحتاج إلى زمن ، فالمبدعون من كانوا أسياد الزمن وليس عبيده بل إن الزمن لا حساب له بالنسبة لهم . والرخاء حين يولد حضارة رائعة ، أتدق عندها ساعة موتها أم إنها في هذا الطور تصل إلى أوجها ؟ وعندها أليس سقوط الحضارة هو نتيجة لهجوم أو غزو شعوب بربرية عدوة الحضارة بالتعريف . ويعترف غوستاف لوبون أن روما في عهد الأباطرة ملكت أعظم العقول والفنانين والأدباء والعلماء . أليست هذه هي الحضارة ؟ وبعد سقوط بغداد كان الفكر والحضارة في ازدهار ، فكان المتنبي والمعري . وكانت المستنصرية تقف شامخة أمام الغزو المغولي ، فلولا البربر والمغول ما سقطت روما وبغداد وأعمت شمس حضارتهما عيون فاتحيها . وتطرح عندها معضلة أو حيرة الحضارة بصيغة جديدة . كيف ندافع عن الحضارة ، وكيف نفهم أفولها ؟ تلك هي المسألة كل المسألة[٥٥] .

---

[٥٥] المصدر نفسه.

حضارية الانسان

يعتقد بعضهم أن الحضارة اليوم في أزمة ويطرحون السؤال الآتي :- هل غيرت الحضارة الإنسان؟ وقد لايكون السؤال بهذا الشكل صحيحا . فالحضارة تعبير لإرادة الإنسان الواعية وغير الواعية في رسم صورة وإعطاء معنى الحياة . بناء عليه فإن السؤال الواجب الطرح هو:- هل هذا المعنى الإنساني وهذا الشكل الحضاري يغير من طبيعة الإنسان وهل استطاعت الحضارة الانتصار على الإنسان في عيوبه ؟

لاشك في أن الحضارات في صعود ونزول ، فقد تخفف حضارة من عدوانية الإنسان ولكن ذلك قد يكون سببا في أفولها ، كما إن تطور حساسية الإنسان بالحضارة جعلته أكثر انطوائية في خصوصيتها ، ولكن هذا ليس عيبا بل ميزة ، فقد ردت الحضارة الإنسان إلى ذاته والى الحوار معها ، والعودة إلى الذات ليست عيبا حضاريا . ويسأل البعض – هل ألغت الحضارة ميول الإنسان إلى الحسد والضغينة والكره ، وانتصرت على ميول الطمع ومبدأ اللذة والمتعة ؟ ونجيب: نعم و لا . فقد أضعفت بعض الحضارات ذات النزعة الروحية هذه الميول ، وعززتها حضارات أو بعبارة أدق مدنيات أخرى ، ولم تنجح إلى الآن حضارة في القضاء على الأسس أو الأسباب التي ولدت هذه الميول المعيبة عند الإنسان . ومع هذا يبقى الإنسان محل رهان إذ طالما راهنت حضارات على الإنسان وستراهن .

إن تضخم الحضارة المعاصرة – وأفول المدنية – بالمعطيات العقلية إضعاف الجانب الوجداني والروحي ، ومع هذا فهي حضارة وقد

تكون مدانة . والإنسان عقل ووجدان وعلى التوازن بينهما تقوم الحضارة ، كل حضارة ، ومع هذا فقد أفزعت المدنية المعاصرة بعض المفكرين فأدانوها بشدة .

إن حضارة اليوم ستؤدي إن لم تكن قد أدت إلى فقدان التآلف أي التوافق والانسجام عند الإنسان مع الشيء ، فيصبح الإنسان تسارعيا رغائبيا كثير المغادرة لانتماءاته ، بدءً من البيت والوطن والصديق . سيغادر الفرد وطنه بسهولة وينشئ تاريخه وسيغرب عنصر الوفاء وتصبح (ميكانيكية) العلاقات محكومة بالمصالح لا المبادئ ، وسيعيش الإنسان رهينة لزمنه ويتحول إلى آلة تحكمها الساعات وسيكون آلة في المعمل والحقل ولن يجد فرصة للتأمل والرجوع إلى الذات ، وستسود حضارة الذكاء الصناعي وسيقوم عصر الإنسان الآلي وسيتحول الناس إلى مشاهدين لأداء نائب الفاعل كل أعمال الفاعل الأول . واللوحة قاتمة ، جدا قاتمة . وتبقى المدنية المعاصرة ولا أقول الحضارة متهمة أو في قفص الاتهام ، حيث أن مظاهر الهروب من الواقع . . . توجيه اتهامات . . . ضد الحضارة مع دعوة للعودة إلى الحياة البدائية أو حالة الطبيعة . إن عداء الحضارة هو عداء مع الحياة أو خفض لها إلى أدنى مستوى ، وفي هذا الاتجاه نجد أن بعض المعتقدات المستكفة عن الحياة تعتبر مغذيا لمثل هذا الاتهام . . وليس حقا أن الاختراعات لم تقلل من آلامنا ومتاعبنا ولم يفطن أعداء التقنيات والتقدم أن السبب ليس في هذه الاختراعات بل في النظام الاجتماعي البشري نفسه ، أي في العلاقات البشرية نفسها وطريقة استخدام هذه الآلات والتقدم المادي .

تكون مدانة . والإنسان عقل ووجدان وعلى التوازن بينهما تقوم الحضارة ، كل حضارة ، ومع هذا فقد أفزعت المدنية المعاصرة بعض المفكرين فأدانوها بشدة .

إن حضارة اليوم ستؤدي إن لم تكن قد أدت إلى فقدان التآلف أي التوافق والانسجام عند الإنسان مع الشيء ، فيصبح الإنسان تسارعيا رغائبيا كثير المغادرة لانتماءاته ، بدءً من البيت والوطن والصديق . سيغادر الفرد وطنه بسهولة وينشئ تاريخه وسيغرب عنصر الوفاء وتصبح (ميكانيكية) العلاقات محكومة بالمصالح لا المبادئ ، وسيعيش الإنسان رهينة لزمنه ويتحول إلى آلة تحكمها الساعات وسيكون آلة في المعمل والحقل ولن يجد فرصة للتأمل والرجوع إلى الذات ، وستسود حضارة الذكاء الصناعي وسيقوم عصر الإنسان الآلي وسيتحول الناس إلى مشاهدين لأداء نائب الفاعل كل أعمال الفاعل الأول . واللوحة قاتمة ، جدا قاتمة . وتبقى المدنية المعاصرة ولا أقول الحضارة متهمة أو في قفص الاتهام ، حيث أن مظاهر الهروب من الواقع . . . توجيه اتهامات . . . ضد الحضارة مع دعوة للعودة إلى الحياة البدائية أو حالة الطبيعة . إن عداء الحضارة هو عداء مع الحياة أو خفض لها إلى أدنى مستوى ، وفي هذا الاتجاه نجد أن بعض المعتقدات المستكفة عن الحياة تعتبر مغذيا لمثل هذا الاتهام . . وليس حقا أن الاختراعات لم تقلل من آلامنا ومتاعبنا ولم يفطن أعداء التقنيات والتقدم أن السبب ليس في هذه الاختراعات بل في النظام الاجتماعي البشري نفسه ، أي في العلاقات البشرية نفسها وطريقة استخدام هذه الآلات والتقدم المادي .

ومن الجدير بالملاحظة ، أن الدعوة إلى العودة إلى الطبيعة قد تهدف إلى إعادة التوازن في معادلة الحضارة بين الطاقة الروحية والطاقة المادية . وجدير بنا أن نقرّ أن رفض حضارة الغرب المادية وعدم الرغبة في الحوار ، له من الأنصار المستنكفين وغير المستنكفين عن الحياة ، إلاّ أن هذا الرفض لا يجد سببا له في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ابتدع المدنية التكنولوجية التي كيفت الإنسان لمتطلبات التكنولوجية وأشغلت وجوده وزمنه عبثا ، بدلا من أن تكون مصدر تحريره ليجد ذاته المستلبة . وإذا كان الأمر كذلك عندها يطرح السؤال التالي:- ألا نحتاج إلى ثورة للإنسان على الإنسان وعلى ذات الإنسان من أجل الإنسان ؟ هذا ما تفرضه معطيات العصر الحاضر كما نعتقد .

أين نحن كأمة عربية من الحضارة ؟

إن الواقع الحضاري لأمتنا لا يدعو إلى التفاؤل . فلو سألنا:- ما دور الفكر والفلسفة والحكمة المعاشة في حياتنا وثقافتنا ومدرستنا ، وما نصيب الحرية واحترام الإنسان والعقل والتعاطف الإنساني المتفهم والأفكار العظيمة التي تحدد الرؤية المصيرية المتكاملة والمشروع الحضاري ؟

الواقع ، لا نجد إلاّ أجوبة تقف خجولة أمام التخلف الحضاري في مجتمعنا العربي اليوم ، ولعل هذا ما دفع الدكتور زكي نجيب محمود إلى أن يعود إلى الماضي ليقول:- أية إضافة عظيمة تستطيع الثقافة العربية الأصيلة أن تضيفها إلى حضارة هذا العصر لو أنها جسدت قيمتها في أبنائها أولا فاستطاعت بذلك أن تعطي للعالم المعاصر معاني إنسانية في

مقابل ما تأخذه من علوم وتقنيات . كان من بين ما أوحى إلي بهذه النظرة إلى الأسماء الحسنى وهي النظرة التي تجعل منها قيما للسلوك البشري ، كتاب صغير عميق منهم هو كتاب الإمام الغزالي ((المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى)) . فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة ، كان هذا دورنا في بناء الحضارة . إلاّ أن الأمنيات والسعي وراء ما يجب أن يكون ، لا تخرجنا من التخلف الحضاري الذي يعاني منه المجتمع العربي .

حقيقة أن الحضارة العربية الإسلامية التي وجدت مكانها البارز بين حضارات العالم ، وكذلك الحضارات العربية القديمة يمكن أن تكون لنا خلفية حضارية كبيرة . إلاّ أننا كنا ورثة حضارات تبقى في ذاكرة الإنسان والتاريخ ، فهذا لا يعني أننا اليوم نعيش في حضارة ، ولكن هل الحضارات القديمة يمكن أن تكون حافزا لنهضة حضارية جديدة ؟

إن الانقطاع الحضاري ولنقلها بصراحة ، أبعدنا عن الحضارة وأوغلنا في التخلف ، فلا يمكننا أن نكون ورثة هذه الحضارات الباهرة ما لم نعِ هذه الحضارات . وهذا الوعي يتطلب ويفترض وعي الذات ، فمجرد الانتماء التاريخي لايكفي على ما نعتقد ، لكن ألا يملك الشعب العربي ذاتا حضارية قد لاتملكها بعض الشعوب . وهل الذات الحضارية يمكن أن تكون كامنة تتحرك بعد تحقق الكل الحضاري ، فالحضارة تعبير من قبل النخبة عن روح الشعب والأمة ، ولكل شعب نضجه الحضاري . ونضج الشعب العربي الحضاري الكامل لايكون إلاّ باكتمال وحدته . وعليه فإن الوحدة العربية ضرورة حضارية . فالتكامل الحضاري يكون بين أجزاء

الأمة العربية ، فلا حضارة عربية ما لم يتكامل الشعب العربي بوحدته ، وعند ذاك يعي ذاته ويعي شخصيته الحضارية . وهذه الشخصية الحضارية لاتولد ما لم تتحقق وحدة الشعب العربي ، لذلك فإن النضال الوحدوي هو عمل حضاري وأن الوحدة ضرورة حياتية وحضارية . فلا حضارة لأمة مجزأة ، والأمة بدون حضارية لاوجود إنسانياً لها . فهل ندرك كل هذا ؟ وأين نحن من الوحدة والحضارة ؟